INSTITUT DU MONDE ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

أوكتاف هوداس

OCTAVE VICTOR HOUDAS

عبد الستار الجامعي

100 كتاب وكتاب

11

أوكتاف هوداس

الكتاب : أوكتاف هوداس
المؤلف : **عبدالستار الجامعي**
الطبعة : الأولى 2020
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2019MO5747
الترقيم الدولي : 978-9920-627-15-3

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

أوكتاف هوداس

عبدالستار الجامعي

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبة..... 9

المقدّمة..... 11

الفصلُ الأوّلُ: أوكتاف هوداس: أثره وآثاره..... 17

1- ولادتُه..... 17

2- الانتقالُ إلى الجزائر..... 19

3- الزواجُ والبداياتُ المضطربة..... 21

4- العودةُ إلى الوطنِ..... 25

عرضٌ موضوعيٌّ لكتبه: 27

1- مهمّةٌ علميّةٌ في تونس..... 28

2- إثنوغرافيا الجزائر..... 32

3- مقطعيّةُ اللغة العربية..... 33

4- قواعدُ اللغة العربية..... 36

5- الإسلامُ..... 37

الفصلُ الثاني: مُختاراتٌ ممّا قام بترجمته..... 41
1- الكُتبُ المُـترجمةُ..... 41
2- دوافعُ التّرجمةِ..... 56
3- منهجهُ في التّرجمة..... 57
4- من مآخذ التّرجمة..... 61

الفصلُ الثالثُ: مُختاراتٌ من كتاباته الفكرية والإبداعية.... 71
1- الإسلامُ..... 71
2- الحربُ الإسلاميّةُ المقدّسةُ (الجهاد)..... 73
3- تاريخُ العلوم: الكيمياءُ في العصور الوسطى.... 83
4- محاولةٌ في الخطّ المغربي..... 87

الفصل الرابع: مُختارات ممّا كُتب عنه: 93
1- رسالةُ عبد الفائق..... 93
2- شهادةُ لويز دولافوس..... 95
3- شهادةُ موريس كودال..... 97
4- خطابُ وداعٍ أخير..... 103
5- تأبين جماعيٌّ..... 106
6- شهاداتٌ أخيرةٌ لا بدّ منها..... 109

الخاتمة: 117

ثبت ببليوغرافي مختصر لأهمّ أعماله، وبالمواقع الشبكية التي تتعلّق به..... 119

المصادرُ والمراجعُ..... 123

عتبـة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

مقدمة

ربّما يُعدُّ "أوكتاف فيكتور هوداس" من بين أحدِ أبرزِ المستشرقين قيمةً في العالم العربي خاصة، وفي العالم الغربي على وجه العموم، وذلك بالنظر إلى حجْمِ المادّةِ الفكرية الثريّةِ والمتنوّعةِ التي خلّفها وراءه، والتي سيأتي عليها الكلامُ لاحقًا في هذا الكتابِ. بيْدَ أنّ قيمتَهُ هذه لا تمنعنا من القول؛ إنّه كان أيضًا، على ما في الأشياء من تناقضٍ، من أحدِ أبرز المؤلّفين الذين غُمط حقّهم من الدراسةِ والتحليل، وأُسقطوا من تصنيفاتِ بعضِ المؤلّفاتِ والقواميس إسقاطًا غيرَ مبرّرٍ[1]. ولقد كان تناولُ الكُتّابِ والباحثين – لاسيما أولئك المهتمّين منهم بالدراسات الاستشراقيّة– لهذا المؤلِّف تناولًا، في الغالب، عامًّا لا يدلفُ إلى أعمال هذا الرجل أو حياته، ولا يُنقّر في تفاصيلها، إنّما يحوم

(1) وآية ذلك أنّ معجمًا مهمًّا وضخمًا مثل "ذيل الأعلام"، لأحمد العلاونة قد غيّب "أوكتاف هوداس" وأبعده من مجال اهتمامه رغم قيمته العلميّة. يُنظر:

- أحمد العلاونة، معجم مترجم لأشهر الرجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (3ج)، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، 2002.

حولها، فلا يُضيف إليها شيئًا ذا قيمةٍ تُذكر[1]. لذلك فلا عجبَ، والحال تلك، إنْ ظلّ أوكتاف هوداس مجهولًا لدى فئةٍ أخرى غير قليلةٍ من الباحثين العرب خاصّة، والمُهتمّين منهم بمجال الاستشراق بصفةٍ أخصّ. ومن هنا جاءت فكرةُ هذا الكتابِ، وهدفُها أن تُقدّم إضافةً للقرّاءِ بخصوص هذا المستشرق الفرنسيّ، الذي عُرف بأعماله الغزيرة والمتنوّعة في مجالِ التأليفِ وتحقيقِ التراثِ العربيِّ والترجمةِ خاصّة.

ولقد اتّبعنا، من أجل تحقيق هذا الهدف، منهجيّةً محدّدةً، تجمع بين التعريف بالمستشرق أوكتاف هوداس؛ حياته المهنيّة ومكان إقامته الطويلة بالجزائر وعائلته ثمّ وفاته أولًا، لنمرّ، ضمن مرحلةٍ تاليةٍ، إلى التنقير في أهمّ المنجزات الفكريّة التي قام بها، والإشارة إلى أبرز الآراء التي قيلت فيه، وأهمّ النقود المتنوّعة التي

(1) وخيرُ دليلٍ على ذلك ما نجده في موسوعة المستشرقين لعبد الرحمان بدوي، حيثُ إنّ المؤلّف يقدّم لنا تعريفًا مقتضبًا حول هوداس، مع ذكر بعض المؤلّفات التي أنجزها. يُنظر:
عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط4، بيروت، 2003، ص، 617.
ويُنظر أيضًا:
يوسف إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، ج،2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص، 1903- 1904، حيث يخصّص المؤلّف، في تعريفه للمستشرق هوداس، حيّزًا قليلًا لا يتجاوز نصف الصفحة، يذكر فيها معلومات عامّة وجملةً من الآثار العلميّة التي خلّفها.

وُجّهت إليه. وكلّ ما نسعى إليه، من وراء هذا العمل، هو الوصولُ إلى تقديم إضافةٍ شافيةٍ كافيةٍ بخصوص هذا المستشرق الذي قدّم أعمالًا جليلةً للفكر العربي والغربي على حدّ السّواء.

ومن أجل التعريف بهذا الكاتب، وإبراز أهمّ المبادئ التي كان يؤمن بها، وتسليط الضوء على تلك المشاعر والأحاسيس المتناقضة التي كانت تتحرّك في كيانه؛ حبّه وكرهه، أمنه وخوفه، آماله وآلامه، إلى غير ذلك من الأحاسيس المتناقضة التي قد تجتاح كيان الإنسان في حياته، من أجل ذلك كلّه، إذن، اعتمدنا بشكلٍ رئيسٍ على مذكّرات "لويز دولافوس"[1]، حفيدة أوكتاف هوداس[2]، التي عبّرت بعفويّةٍ صادقةٍ في كتابها، المُخصّص في الأصل للحديث عن حياةِ أبيها موريس دولافوس، عن مواقفها من جدّها "الشيخ هوداس"، كما يحلو لها أن تُناديه. وهو كتابٌ تفصيليٌّ، مهمٌّ جدًّا، ولا غنى عنه في هذا السّياق، نشرته سنة 1976، وذلك بعد أنّ نثرت بعضَ هذه المواقفِ في مقالٍ مُنفصلٍ بإحدى المجلاّت الأكاديميّة[3]، كما

(1) Louise Delafosse: Maurice Delafosse, Le Berrichon conquis par l'Afrique. Préface du président F. Houphouet – Boigny. Postface du Président L.S. Senghor. Société Française d'histoire d'outre- mer. Paris. 1976.

(2) Shaykh Muusa Kamara.
Florilège Au Jardin de l'histoire des Noirs. CNRS Editions. Paris. 1998

(3) Louise Delafosse: Témoignage. Comment prit Fin la carrière coloniale de Maurice Delafosse. In: Revue Française D'histoire D'autre – Mer. Tome LXI- Premier trimestre 1974. N 22.

استندنا بشكلٍ ثانويٍّ إلى بعض المواقع الإلكترونية ذات الصّلة بمجال بحثنا، وأيضًا على كتابات بعض المؤلّفين العرب الذي ألّفوا في مجال الاستشراق وخصّصوا، من ثمّة، حيّزًا من تأليفهم هذا للحديث عن هوداس، وأبدوا مواقفهم منه، وهي مواقف متراوحة بين التعاطفِ والإعجابِ حينًا، والنّقد وعدم الاتّفاق أحيانًا أخرى.

انتظم عملُنا وفق فصولٍ أربعةٍ إذن، تقفوها مقدّمة وخاتمة. فأمّا الفصلُ الأوّلُ فقد خصّصناه للحديث عن حياة المؤلّف؛ أثره وآثاره، وما أنتجه من دراسات علميّة مهمّة. وإلى ذلك فقد قمنا في هذا الفصل، أيضًا، بتقديم عرضٍ موضوعيٍّ لأهمّ أعماله في مجال التأليف، رتّبناها بحسب تاريخ صدورها، وتحدّثنا عن محتوياتها، والمغزى من تأليفها، والعِبر التي يُمكن أن نلتقطها منها.

وأمّا الفصلُ الثاني فقد ركّزنا فيه على أهمّ ما قدّمه أوكتاف هوداس طوال مسيرته العلمية؛ عمله في التحقيق والترجمة خاصّة، وأهمّ الإضافات التي حقّقها، وكذلك أهمّ النّقودِ التي وُجّهت إلى بعض ترجماته للمخطوطات العربية التراثية النادرة.

خصّصنا الفصلَ الثالثَ لتسليط الضوءِ على مُختاراتٍ من أهمّ كتابات هوداس، حيث قُمنا بترجمة بعضٍ ممّا أورده المؤلّفُ في كتابه "الإسلام"، ترجمنا بعد ذلك جزءا ممّا نشره في مقالته حول "الحرب الإسلاميّة المقدّسة" أو "الجهاد"... كما قُمنا بترجمة

جزءٍ آخر من كتابه" تاريخ العلوم: الكيمياء في العصور الوُسطى". ولم نشأ أن نختم هذا الفصل دون الإشارة إلى مقالته: "محاولة في الخطّ العربي"، وهي مقالة جدُّ مُفيدةٍ، تحدّث فيها هوداس عن أصول الخطّ المغربي، وعن جماليّاته وأنواعه وعن أماكن انتشاره، ترجمها آخرون قبلنا، فلم نرَ حرجًا من استعمال هذه الترجمة العربية، بالنظر إلى ما تحتويه هذه المقالة من معلوماتٍ متّصلةٍ بتاريخ الأدب العربي بدرجة أولى، وبتاريخ الخط المغربي بدرجة ثانية.

وأمّا في الفصل الرابع والأخير، فقد قُمنا بإثبات مُختارات ممّا كُتب عنه؛ وهي مُختارات كانت، على ندرتها، مهمّةً في سياق بحثنا، ومُساعدةً على إضافة قدرٍ من كمِّ المعلوماتِ تُجاه هوداس، حيث ذكرنا شهاداتٍ ورسائلَ وخطاباتٍ لكُتّابٍ سمعوا بهوداس وقرؤوا له دون أن يروه، وأخرى لكتّاب عرفوه حقَّ معرفةٍ، وثالثة لأساتذة خالطوه في العمل، فكانت هي الأخرى شهاداتٍ مهمّةً وقادرةً على إضاءة جوانب أخرى من شخصيّة هذا المُستشرقِ.

وبعد أن توّجنا عملَنا هذا بخاتمةٍ مُركّزةٍ، قُمنا بوضع ثبتٍ بيبليوغرافيٍّ لأهمّ أعمال هذا المُستشرق الفرنسي، مع قائمة للمصادر والمراجع باللّغات المُختلفة، بالإضافة إلى المواقع الإلكترونية التي توسّلنا بها في بحثنا، ولم نضع الأعمال التي ألّفها هوداس كلّها، بل وضعنا أهمّ هذه الأعمال، التي بقيت مجهولةً

عند عددٍ غير قليلٍ من القرّاء، راجين من وراء ذلك كلّه أن نكــون قد ساهمنــا، ولو بالقدر القليلِ، في التعريف بهذا المُستشرق الفرنسيّ الجليل.

د. عبد الستار الجامعي

باريس، بتاريخ 16 أفريل 2019

الفصلُ الأوّلُ
أوكتاف هوداس: أثره وآثاره

1- ولادتُـه:

وُلدَ أوكتاف فيكتور هوداس بمقاطعة مدينة "لوتارفيل"[1] الفرنسية، يوم الخميس 1 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1840م الموافق لـ 4 شعبان 1256هـ، وتوفيّ بباريس، بعد حياةٍ مديدةٍ غنيّةٍ قاربت الثمانين سنةً، يوم الثلاثاء 5 كانون الأوّل (ديسمبر) 1916م، الموافق لـ 9 صفر 1335هـ، لأبٍ يُدعى فيكتور هوداس[2]، ويشغل مهنة كاتب عدلٍ، وُلد في مدينة لوري[3] الفرنسية سنة 1808م، وتُوفيّ بمدينة "الرغاية" التي تقع في أقصى شرق ولاية الجزائـر سنـة 1887م، ولأمّ تُدعى لويز ديتارد، وُلدت بلوري سنة 1821م وتوفيّت، هي الأخرى، بمدينة الرغاية الجزائريّة، بُعيد وفاة زوجها بقليل، سنة 1890م تحديدًا. وقد عاش أوكتاف وسط عائلةٍ عريقةٍ وكبيرةٍ، نسبيًّا؛ فقد كان له أخوان اثنان، إيجان (1853م – 1885م) ولويس (1858م– 1895م)، وأختان اثنتان

(1) Outraville.
(2) Victor Houdas.
(3) Loiret.

أيضًا: سيسيل (1848م- ؟) وماتيلدا (1839م- 1903م)[1].

اشتغل أبوه، فيكتور هوداس، في شبابه مسّاحًا طوبوغرافيًّا خبيرًا وكاتبَ عدلٍ بمدينة لوتارفيل الفرنسية، ثمّ سرعان ما تم نقله إلى الجزائر، حيث اصطحب زوجته وأبناءه الثلاثة؛ أوكتاف، وماتيلدا، وسيسيل، معه، وهو لم يبلغ سنَّ الأربعين بعد.

لم يستطع فيكتور، في البداية، التأقلّم مع البلاد الجديدة التي نُقل إليها، ولم يُخْفِ تذمّره وشعوره بالقلقِ والانزعاجِ فيها. وتذكر بعضُ المصادر أنّه كثيرًا ما كان ينهار بكاءً رفقة زوجته حينما يعاودهما الحنينُ إلى فرنسا بلدهما الأمّ، ولكن ذلك لم يمنعه من مواصلة حياته لاحقًا، لاسيما بعد أن ألِفَ المكانَ الجديدَ، وتعوّد عليه وعلى أهله. وقد واصل عمله في المهنة نفسها التي كان يمتهنها في فرنسا، ثم شغل، بعد ذلك، منصبَ رئيس بلديةِ الرغاية، المدينة التي تقع على بعد ثمانٍ وعشرين كيلومترًا شرق الجزائر العاصمة. وهناك، اشترى فيكتور عَقارًا صغيرًا بجانب الوادي، في منطقة مظلّلةٍ ومناسبةٍ لصيد الأسماك، كثيرًا ما كانت، بحسب ما تبيّنه لنا المصادر، تُذكّره ببلده الأمّ فرنسا[2]. وفي هذا المكان توفّي هو

(1) حول تفصيل ذلك، انظر الموقع:
https://gw.geneanet.org/lepope?lang=fr&n=houdas&oc=0&p=octave+victor.

(2) Louise Delafosse: Maurice Delafosse, Le Berrichon conquis par l'Afrique, P. 187.

وزوجته لويز. ولقد ظلّ هذا المنزلُ ملكًا للعائلة، حيث عاشت فيه ماتيلدا وطوّرته، ولم يتم بيعه إلاّ بعد عاميْن من وفاتها، وكان ذلك سنة 1905م تحديدًا.

2- الانتقالُ إلى الجزائر:

انتقل أوكتاف صحبة والديْه إلى الجزائر وهو لم يتجاوز سنّ السادسة بعدُ[1]. ويبدو أنّ هذا الانتقال قد ساعده على أن يكون، لاحقًا، متبحّرًا في عالم المعرفة والتخصّص، وقد ساعدته الفترةُ التاريخيّةُ التي عاش فيها على مزيد من النشاط في مجال الاستشراق الفرنسي. فهو قد عاش في العهد الذهبي للمستشرقين الفرنسيّين في الجزائر، ذاك العهد الذي كُلّل بانعقاد المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين العلميّن في ربيع سنة 1905م بمدينة الجزائر، الذي حضره، يومذاك، حولي خمسمائة شخصٍ[2]. وبعد إتمام دراسته الثانوية بالجزائر، عاد هوداس لاجتياز امتحان الباكلوريا بفرنسا، وبمدينة مرسيليا تحديدًا، قبل أن يعود مجدّدًا إلى الجزائر، لمتابعة دراسته العليا في اللغة العربية[3].

---

(1) Louise Delafosse. Ibid. P.186.

(2) للمزيد حول هذا الموضوع يُنظر:
أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط،1، بيروت، 1996، ج،4 ، ص، 41.

(3) Louise Delafosse. Maurice Delafosse. P. 187.

عُيّن هوداس مُفتّشًا في مدارس الجزائر، وعندما تمّ إنشاء أوّل كوليج إمبريالي عربي- فرنسي في البلد نفسه سنة 1857م، بهدف نشر التأثير الفرنسي بين الجزائريّين، وتعيين نيقولا بيرون N. Perron[1] مديرا له، أُلحق، بهذا الكوليج، خطّة "كرسيّ اللغة العربية" وأُسندت إلى أوكتاف هوداس مهامُّ رئاسة هذا الكُرسيّ، وكان ذلك بدايةً من سنة 1863م. تولّى أوكتاف، إذن، هذا المنصب، وساعده في ذلك أحدُ أهمّ الباحثين الجزائريّين الذين تكوّنوا في مدرسة الاستشراق الفرنسي، وهو بلقاسم بن سديرة[2].

(1) ولد نيقولا بيرون سنة 1798م بباريس، وتابع دراسته في العلوم الإنسانية وتخصّص في الطب، وأثناء ممارسته الطب تعلّم العربية في مدرسة اللغات الشرقية، كما درس الفارسية والتركية، وبعد مكث في إدارة أوّل كوليج عربي- فرنسي في الجزائر سبع سنوات تمّت تسميته مفتّشًا عامًّا للمدارس العربية- الفرنسية في الجزائر، توفّي سنة 1876م بباريس، ومن أهمّ أعماله: المرأة العربية قبل الإسلام وبعده، والمجلّة الطبيّة الجزائريّة. يُنظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص، 37.

(2) وُلد بلقاسم بن سديرة سنة 1845م، وتوفّي سنة 1901م. وهو باحث في مجال الاستشراق، تتلمذ على يد أهمَّ المستشرقين الفرنسيّين، شغل منصب أستاذ بمدرسة الآداب العليا، وبالمدرسة النورمالية، وعضوًا في الجمعية الآسيوية بباريس، وله مؤلّفات عدّة، منها: موجز النحو العربي، ودروس تطبيقية في اللغة العربية، ودروس في الأدب العربي، والدروس التدريجيّة من الرسائل العربية، وغيره من المؤلّفات.
يُنظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، 44- 45.

3- الزواجُ والبداياتُ المضطربةُ:

بعد أن استقرّ أوكتاف هوداس في الجزائر، وأنشأ فيها علاقاتٍ وطيدةً مع مثقّفيها، وأصبح مختصًّا، لا في اللغة والآداب العربية فقط، وإنّما في الثقافة الإسلامية كلّها، رغم تكوينه المسيحي، قرّر، سنة 1876م، أن يتزوّج من لويز ليفي[1]، التي وُلدت في 15 أكتوبر سنة 1847م، وتوفّيت في 25 سبتمبر 1907م، في عمر الستّين سنةً.

عرف أوكتاف لويز – الشّابة ذات الأصول الألمانية التي قرّر والدها أن يتركا ألمانيا ليستقرّا بالجزائر- وهي لم تتجاوز، بعدُ، ثماني عشر ربيعًا، في الوقت الذي نيّف فيه عمره هو، وقتئذ، على ستٍّ وثلاثين سنةً، وأُعجب بها، وفي مدينة وهران الجزائرية قرّر أن يتزوّجها، وعاشا سويًّا حياةً ممتعةً ومثاليّةً، بحسب ما تذكره لنا بعضُ المصادر[2].

بيْدَ أنّ هذه النعمة لم تدم طويلًا في حياة أوكتاف، حيث إنّه قد رُزق بأوّل أبنائه "هوداس[3]، الذي وُلد ومات في اليوم نفسه،

---

(1) Louise levy.

(2) Louise Delafosse. Maurice Delafosse. P.187.

وانظر أيضًا الموقع الالكتروني التالي:

https://gw.geneanet.org/cl63?lang=fr&iz=2&p=octave+victor&n=houdas.

(3) Houdas.

وتحديدًا في 13 فبراير 1877م، فنغّص عليه فرحته به. ويبدو أنّ حظَّ ابنه الثاني، جورج، لم يكن بأفضل من حظّ أخيه، فلم يُعمّر، هو الآخر، إلاّ سنوات ثلاثٍ، حيث إنّه قد وُلد في 18 سبتمبر 1878م، وتُوفّي في 3 فبراير 1881م، غير أنّ ثمار هذا الزواج قد أعطت أُكلها من جديدٍ، فقد رُزق أوكتاف ولويز، بعد هذيْن الطفليْن، بفتياتٍ ثلاثٍ، أسمتهنّ أمهنّ: إديث (Edith) (3 نوفمبر 1880م)، لويز فلانتين (louise Valentine) (31 مايو 1882م) وأليس (ALice) (17ديسمبر 1883م)[1]، وهي أسماء لأهمّ الروايات الإنجليزية التي كانت "ماتيلدا" تُفضّلها[2]، ولقد أنسيْنها حزنها على وَلديْهَا اللَّذيْن تُوفّيا، وملأْن عليهما، هي وزوجها هوداس، الحياة فرحًا وبهجةً، لاسيما البنت الوسطى، لويز، التي كانت، **"بسيطةً، عاطفيّةً، موهوبةً جدًّا، شابّةً صغيرةً، ذكيّةً وحكيمةً، كالطائر مُفعمةً بالرّشاقةِ والحيويّةِ"**[3]، و"أَلِيس" أيضًا، الرسّامة الصغرى ذات الشَّعْرِ **"البنّيِ المُجعّدِ والعيونِ الضاحكةِ والابتسامة الجميلة، التي كانت تعشق الجزائرَ، أكثر من عشقها للرسم أحيانًا"**[4]، والتي لطالما كانت تُصرّح، جهارًا نهارًا، بأنّها

(1) في تفصيل ذلك انظر الموقع الإلكتروني التالي:
https://gw.geneanet.org/cl63?lang=fr&iz=2&p=octave+victor&n=houdas.

(2) Louise Delafosse. Maurice Delafosse. P.187

(3) Louise Delafosse. Maurice Delafosse. P.187.

(4) Louise Delafosse. Ibid. P. 191.

"من أشدّ المعجبين بغرائب مساجدها، وبالسّاحات المشمسة فيها، حيث كان يُقدّم لها فيها الشّايَ بالنعناع، وبجمال المناطق المحيطة بها في الربيع"، لديّ شغفٌ بالأشياء العربية كلّها، تقول وتُضيف: **شغفٌ بالنّحاسِ، وبالأقمشةِ، ولكن شغفٌ بالعرب أنفسهم أيضًا"**[1]. فهي لها مكانة مخصوصة عند والديْها. ولهذا لن نعجب إذا ما اكتشفنا، فيما بعد، أنّها قد رفضت العديدَ من عروض الزواج التي وصلتها، رفضًا قطعيًّا، مقرّرةً أنّها ستُكرّس حياتها لخدمة والديْها الوحيديْن، لاسيما أمّها التي كانت تُعاني من أزمةٍ صحيّةٍ حادّةٍ أدّت إلى وفاتها لاحقًا. ولهذا طردت فكرةَ الزواجِ من رأسها، وانشغلت بالرّسْمِ عنها، وقرّرت الانتظارَ. ولم تملّ من انتظارها هذا إلاّ حين توفّيت أمُّها. وفي يوم 11 نوفمبر 1907م تحديدًا تركت الرّسمَ، وقررّت الانعتاقَ من الفضاء المُغلـق الذي عزلت نفسها فيه، والزواجَ، من موريس دولافوس (Maurice Delafosse)[2]، تلميذ أوكتاف، الذي تقرّب من عائلة

(1) Louise Delafosse. Ibid. P.190.

(2) أستاذ اللغات السودانية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وهو في الأصل طبيب فرنسي، ولكنّه غير توجّهاته وأصبح مؤرّخًا ولغويًّا وكاتبًا عبقريًّا، ألهمت كتاباتُه العديدَ من الباحثين، ومن أهمّ أعماله: ترجمة تاريخ الفتّاش مع أوكتاف هوداس، وله، أيضًا، العديد من الأبحاث العلمية المنشورة في مجلات علمية عريقة. وُلد يوم 20 ديسمبر 1870م وتوفي يوم 13 نوفمبر 1926م، يُنظر ترجمته في: =

هوداس، فلم يكن يتردّد في إرسال الرسائل إلى أفراد هذه العائلة، لاسيما "أَلِيسْ" التي كان يخصّها، دون سواها من أخواتها، بالطوابع البريديّة والهدايا في عيد ميلادها، وأصبح، بمرور الوقت، بمثابة الابن الذي لطالما كان "الشيخ هوداس" يتمنّى إنجابه[1].

في الجزائر، عاشت عائلةُ هوداس في جوٍّ كبيرٍ من الحميميّة والرّفاهيّة. فقد كانت تسكن في حيٍّ هادئ تقصده، في الغالب، الطبقةُ الغنيّةُ من الناس. فأمّا الفتياتُ الثلاثُ فقد كنّ، إلى جانب أمّهن، يرغبن دائمًا في أن يعشن بالقربِ من أصدقائهنّ. وأمّا لويز، أمهنّ، فقد كانت غايةً في اللّطفِ وفي الخجلِ وفي الرّومانسية في الآن ذاته، شديدةَ الخوفِ من الموت ومنَ التفكير في مجرَّد إمكانيّة تدهور صحّتها، وكثيرًا ما كانت تسلّي نفسها بنسْجِ الحكايات الخرافية والمسرحيّات القصيرة. وإلى ذلك فقد كانت تُخصّص أُمسيةً من كلّ يوم اثنين لاستقبال المبدعين والكتّاب في بيتها، الذي كثيرًا ما كان مفتوحًا للأصدقاء، الأقارب والأباعد،

Henri Labouret, «Maurice Delafosse: A Personal Appreciation», = Africa: Journal of the International African Institute, vol.1, n°1, janvier 1928. P.112-115.

ويُنظر أيضًا:

Louise Delafosse: Témoignage. Comment prit Fin la carrière coloniale de Maurice Delafosse .P.74.

(1) ينظر:

Shaykh Muusa Kamara: Florilège Au Jardin de l'histoire des Noirs. CNRS Editions. Paris. 1998. P.39.

من الجزائر ومن باريس، الذين يمكن أن يأتوا، جميعهم بلا استثناءٍ ودون دعوةٍ مُسبقةٍ منها، لتذوّق أكلها، خاصة الكُسكسي الذي كانت تُجيد طبخه، وأيضًا للّهو والضحك مع الأسرة[1].

وأمّا أوكتاف هوداس نفسه، فقد كان هو أيضًا حريصًا على تكوين علاقات متينةٍ وموسّعةٍ مع المثقّفين الجزائريّين خاصة، سواء أكانوا من الأساتذة أم من التابعين للهيئات الديبلوماسية، ولكن مع غير الجزائريّين أيضًا، لاسيما أولئك الذي كانوا يقصدونه، باستمرار، من أقاليم تركيا وألمانيا وبلاد فارس[2]. ولا شكّ في أنّ هذا الجو الهادئ قد أنسى هوداس بدايات حياته الزوجية المُضطربة، وساعده كثيرًا في حياته المهنية والعلمية.

4 - العودةُ إلى الوطن:

بعد أن أمضى هوداس فترةً مهمّةً على رأس كرسيّ اللغة العربية بالجزائر، عاد إلى باريس سنة 1884م، ليتمّ تعيينه، هناك، مُدرّسًا للغة العربية العامية الجزائريّة – التي ستُسمّى لاحقًا بالعربيّة المغربية– في مدرسة اللغات الشرقيّة الحيّة، خلفًا لزميله المُدرّس الفرنسي جاك شيربونو" (Jacques Auguste Cherbonneau)[3]،

(1) Louise Delafosse. Maurice Delafosse. P. 186.

(2) في هذا الإطار، يُنظر:
Louise Delafosse. Maurice Delafosse. P. 186.

(3) هو مستشرق فرنسي، مؤسّس وسكرتير جمعية الآثار في قسنطينة بالجزائر، شغل منصب مدير الكلية العربية الفرنسية في الجزائر، ثم مفتّشًا للمدارس =

وذلك لفترة تواصلت حتى تاريخ وفاته، سنة 1916م، ليحلّ محلّه بعد ذلك زميلة وليام مارسيه (William Marçais)[1].
وخلال هذه الفترة ألّف هوداس جزءًا مهمًّا من دراساته التي تجاوز فيها الإطار اللغوي، فدرس تاريخ المغرب، وأصدر كتابًا حول "إثنوغرافيا الجزائر"، و"الكيمياء العربية"، وغيرها من الأعمال الفريدة التي اعتنت بالترجمة والتحقيق. على أنّ هذه الانشغالات كلَّها لم تكن لتمنع هوداس من زيارة الجزائر بانتظام لمواصلة القيام بمهمّات البناء، لا تهديم الجسور بين مختلف الاتّجاهات والثقافات من خلال مهمّته كمفتّش في المدارس الجزائرية، وأيضًا من خلال علاقاته الشخصيّة التي تسنّى له تأسيسها مع مثقفّي العالم العربي عمومًا.

= الإسلامية للتعليم، وهو أيضًا أستاذ اللغة العربية العاميّة في مدرسة اللغات الشرقية الحيّة بباريس، ولد سنة 1813م، وتوفيّ سنة 1882م.

(1) وُلد سنة 1872م وتوفيّ سنة 1956م. بدأ نشاطه كحقوقيّ، ثمّ غيّر مساره البحثي بالجزائر، حيث احتكّ، هناك، بالفقهاء المسلمين، وتعلَّم الترجمة والتحقيق وأسرار اللغة العربية أغلبها، وتقلّد مناصب إدارية مختلفة بتلمسان والجزائر، يُنظر:

Anna Pondopoulo: Les dialectes soudanais à l'école des langues orientales au tournant des XIX^{e} et XX^{e} siècles: Les hommes, les politiques, les choix. In: Islam et Société en Afrique Subsaharienne à L'épreuve de l'histoire. Sous la direction d'Odile Goerg et Anna Pondoupoulo. Edition Karthala. Paris. 2012. P.419.

عرضٌ موضوعيٌّ لكتبه

لا غرابة في أن نجد اهتمامًا لافتًا من أوكتاف هوداس بالبلـدان العربيـة، ولكـلّ ما يتحرّك فيها ويُميّزها، لا سيما في تلك الفترة المخصوصة التـي قضّاها في الجزائــر. فمكوثُه في هذا البلد فترةً مهمّةً جعله يتعوّد على إيقاع الحياة هناك، ويوجّه تفكيره نحو لغة سكّان الجزائر، اللغة العربية، لمحاولة تعلّم أولويّاتها وفهمها وتأويلها وتدبّر معانيها ومقاصدها، من أجل الاستفادة منها في فهم طبائع الشعوب العربية وأهمّ خصائصهم وأبرز معارفهم.

وقـد كـان مـن نتائج ذلك أن ترك لنا هذا المُستشرقُ جملةً من الأعمال والمساهـمات الفكرية الخاصّة، والجديرة بالتنويه والثريّة في ميادين مختلفة، كالتأليــف والتحقيــق والترجمة، تدلّنا عليها قائمةُ أعماله الطويلة. تفتح هذه الأعمالُ، اليوم، للباحثين مجـالًا واسعًا لإعـادة الاتّصـال بتراثهم وماضيهـم الفكري، والبحث فيه، واقتناص العِبر منه، للرقّي به وبذواتهم أيضا، فالشعبُ **"الذي يُريد الرقيّ يجب عليه أن لا يقطع الصّلة التي تربطه بماضيه، أي يجب أن يحترم تقاليده ويراعيها"**، على حدّ

عبارة المؤرّخ الفرنسي "غوستاف لوبون"[1].

سنعرض، إذن، في هذا الفصل محتويات بعض أعمال أوكتاف هوداس، وسنبيِّن نوعيّة أفكاره الإبداعية التي نثرها في تضاعيف كُتبه وأهمّ الإضافات التي حقّقها، ما من شأنه أن يُقدّم للقارئ العربي فكرةً شافيةً عن أهمّ منجزات هذا الرجل في تلك الحقبة الزمانية المخصوصة، وبالتالي ليعرف القارئ كيف كان هوداس ينظر إلى تراثه، وكيف كان يتعامل معه ومع لغته وتقاليده.

1- مهمّةٌ علميّةٌ في تونس:

هذا الكتاب[2]- الذي أصدره هوداس بالشراكة مع الباحث اللّساني ريني باسي (René Basset)[3]- يتكوّن من 163 صفحةً من الحجم المتوسّط، وفيه سعى هوداس إلى جمع معلوماتٍ كثيرةٍ

---

(1) من رسالة له كاتب بها الأديب المصري توفيق يزدي. يُنظر:
عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط، 6، 1983، ج،1، ص، 15.
وغوستاف لوبون، طبيب ومؤرّخ فرنسي له العديد من المؤلّفات في علم الآثار وعلم الأنثروبولوجيا، كما عُني بالحضارات الشرقية، وُلد في 7 ماي 1841م وتوفّي في 13 ديسمبر 1931م.

(2) O. Houdas, René Basset. Mission scientifique en Tunisie (1882). Imprimerie de l'association ouvrière. Alger. 1884.

(3) مُستشرق فرنسي، وُلد بفرنسا 24 جويلة 1855م وتوفّي بالجزائر 4 جانفي 1924م.

حول عددٍ مهمٍّ من المخطوطات العربية التي عثر عليها في بعض المكتبات العربية من أجل توثيقها وفقَ طرائق مُتقنة تُسهّل، بعد ذلك، إعادة انتشار هذه المخطوطات، فينتفع بها الناسُ ويستفيد منها أهلُ الاختصاصِ، وذلك أثناء المهمّة التي كُلّف، رفقة زميله، بإنجازها في تونس سنة 1882م. وقد اعترف صاحبا الكتاب بأنّ أوّلَ خطوةٍ قاما بها فور وصولهما إلى تونس تمثّلت في البحث عن الأشخاص الذين كانت لهم معرفة وخبرة، أكثر من غيرهم، بهذا المجال، حتى يسهّلوا عليهم إنجاز هذه المهمّة المحدّدة"[1].

فرّع الباحثان الكتابَ إلى قسميْن: أمّا القسمُ الأوّلُ فقد جعلاه خاصًّا بفنّ النقشِ والرّموزِ العربيةِ، وتحدّثا فيه عن أهمّ المُدن التي زاراها في رحلتهما إلى تونس، وعن أهمّ ما يُميّز كلّ مدينةٍ من معابد ومساجد وآثار تاريخيّة جديرةٍ بالملاحظة، بدْءًا بمدينتي تونس وسوسة بالشّمال، مرورًا بالقيروان، المدينة التي تقع في وسط البلاد، وانتهاءً عند مدينتي قابس وجربة بأقصى الجنوب الشرقي ثم، أخيرًا، طرابلس. وأمّا القسمُ الثاني، فقد خصّصاه لتقديم جرْدٍ بأهمّ المخطوطات العربية التي عثرا عليها وعايناها، ثمّ صنّفاها وفق أبوابٍ، كلّ بابٍ يحتوي على جملةٍ من الكتب التي يُمكن وضعها في الخانة الواحدة. ومن هذه الأبواب:

(1) O. Houdas, René Basset. Mission scientifique en Tunisie. P. 43.

باب الأدب، الذي اعتبره المؤلّفان بمثابة "الجنس"[1] الأدبيّ العامّ الذي تندرج ضمنه أنواعٌ أدبية فرعيّة تنحدر منه وإليه تعود. وفي هذا الإطار ذكرَ المؤلّفان بعض المخطوطات التي تُعنى بالمجالس الأدبية، وأخبار أبي نواس، ومخطوطات أخرى في العدد والمعدود، وثالثة تنتمي لجنس الأمثال من نحو "كتاب الأمثال للثعالبي"، ومجمع الأمثال للميداني. والبابُ الثاني الذي صنّف ضمنه المؤلّفان جملة المخطوطات العربية التي عثرا عليها هو: باب "التاريخ"، وفي هذا الباب وضعا كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير، وتاريخ ابن خلكان، وأيضًا تاريخ الذهبي وتاريخ دمشق لابن عساكر، ومقدّمة ابن خلدون، وجمهرة أخرى من المؤلّفات النادرة لجهابذة العرب الأوّلين من نحو كتاب "أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك" لخير الدين التونسي. وإلى ذلك، فقد تفرّع الكتاب إلى بابين آخريْن هما: باب الرحلات، وباب السياسة.

من الواضح، إذن، ومن خلال هذا الجهد القيّم الذي أبداه هوداس وباسي، أنّ هذه المهمّة كانت ناجحةً، على الرغم من أنّها كانت غيرَ كافيةٍ في تصوّرهما[2]. فهي قد أتاحت لهما

(1) لم يذكر المؤلّفان لفظة "جنس أدبي" في الكتاب صراحةً، ولكنّهما قدّما تلميحات لذلك، وبالتالي فالتأويل من عندنا.

(2) اعترف الكاتبان بأنّ هذه المهمّة التي أنجزاها تُعتبر، على أهميّتها، غير كافيةٍ، بسبب كونهما لم يطّلعا على المخطوطات كلّها التي أرادا الاطّلاع عليها، يُنظر:
O. Houdas, René Basset. Mission scientifique en Tunisie. P.44.

ملامسةَ العديد من المخطوطات العربية عنه قرب، بالقدر نفسه الذي أتاحت لهما التعرّف إلى عيّنات لانهائية من أنماط الكتابة الأدبية والتاريخية عند العرب، والأسلوب المُستخدم في شمال إفريقيا المُسلمة عامّة، وهو ما سهّل عليهما، بعد ذلك، توثيق هذه المخطوطات المختلفة وصيانتها وتنظيمها وفق نظامٍ مُعيّنٍ يسهل، عبره، الرجوع إليها بطريقة ناجعةٍ ومُيسّرةٍ.

ولقد علّق بعضُ الباحثين على هذا الكتاب، وأبدوا إعجابهم بمحتواه وبالجهد الكبير الذي بذله صاحبا الكتاب في جمع أكبر قدرٍ من عناوين المخطوطات. وفي هذا السياق يقول الباحثان "جمال عيساني" و"جمال الدين مشاهد":

"لقد بذل "هوداس" و"باسي"، في هذا الكتاب، قدرًا كبيرًا من الجهد لإعداد قائمةٍ شاملةٍ ومُفهرسةٍ للثروة الببليوغرافية الكبيرة التي كانت تحتوي عليها مكتباتُ المغرب العربي"[1].

(1) Djamil Aïssani et Djamel- Eddine Mechehed. La Khizana de Cheik Lmuhub. Reconstitution d'une Bibliographie de Manuscrits du XIX^{e} Siècle. In: Les Manuscrits Berbères au Maghreb et dans les collections européennes. Acte des journées d'étude d'Aix- en-Provence 9 et 10 décembre 2002. Atelier Per rousseaux. 2007. P.81

2- إثنوغرافيا الجزائر:

أصدر أوكتاف هذا الكتاب[1] سنة 1886م. وهو كتابٌ من الحجم الصغير نسبيًّا، إذْ لا يتجاوز 124 صفحةً. لكنّ حجم هذا الكتاب لا ينفي، في الواقع، أهميّة ما احتوت عليه صفحاته من معلومات قيّمة تخصّ الجزائر بالأساس.

قسّم الباحثُ عمَلَهُ هذا إلى فصول تسعةٍ متفاوتةِ الطولِ. وقد سعى إلى أن يقدّم، من خلال هذه الفصول، دراسةً علميّةً حول الجزائر، مُـتّبعًا في ذلك منهجًا وصفيًّا إثنوغرافيًّا بالأساس، كما نفهم ذلك من عنوان كتابه. وهو منهجٌ دقيقٌ يُعنى، بالأساس، بدراسة أسلوب حياةِ مُجتمعٍ ما وعاداته وتقاليده، وكذلك ثقافاته المتنوّعة، وذلك بهدف الوصول إلى فهمٍ شاملٍ للمجتمع الجزائري في تلك الحقبة التاريخيّة المخصوصة من القرن التاسع عشر. ولذلك نجده ينتقل، سعيًا إلى تحقيق هدفه في الكتاب، من دراسة الخصائص الطبيعية للجزائر إلى تقديم إفادات عن السكّان الأصليّين لها، ومن ذكر الصفات أو الخصائص الفيزيولوجية لهؤلاء السكّان إلى تسجيل خصائصهم الفكرية والأخلاقية، كما نجده ينتقل، في هذا الكتاب، من ذكر تاريخ السكّان الأصليّين للجزائر إلى التعريف بأهمّ عاداتهم وتقاليدهم. وقبل أن يتوّج كتابة

(1) Octave Houdas. Ethnographie de l'Algérie. Libraires de la Société d'ethnographie. Paris. 1886.

بخاتمةٍ مركّزةٍ في بضع سطورٍ أورد من خلالها أهمّ نتائجه وبعض الصعوبات التي اعترضته في بحثه، نجده يُخصّص فصلًا أخيرًا لذكر أهمّ المهارات التي يتمتّع بها هذا المُجتمع، وجملة المعارف والآداب التي أنتجها.

وتعود أهميّة هذا الكتاب إلى أنّ أغلب المعلومات الواردة فيه قد قام أوكتاف بتسجيلها وهو لازال على اتّصال مباشرٍ بالمكان الموصوف وبالجماعات المُراد توصيفها، والتي تعلّم لغتها وشاركها الكثير من العادات والقناعات، ما سمح له بأن يكون تلقائيًّا وموضوعيًّا، وأن يبتعد في وصفه وتحليله، قدر الإمكان، عن تكوينه النفسي، ويتخلّى عن مواقفه الإيديولوجية الخاصّة التي من شأنها أن تؤثّر سلبًا في مصداقيّة العمل.

3- مقطعيّةُ اللغةِ العربيّةِ:

إنّ شغفَ أوكتاف هوداس بفهم أسرار اللغة العربية والتبحّر فيها لم يجعله مُقتصرًا، في الواقع، على مجالٍ دون آخر، بقدر ما جعله يتنقّل بين مجالاتها كلّها، من المجال اللّساني إلى التاريخي إلى الوصفي الإثنوغرافي وإلى غيره من المجالات، وذلك حتى يُصيب حظًّا من كلِّ فنٍّ، ولونًا من كلِّ معرفةٍ، وطرفًا من كلِّ علمٍ. وقد سمحت له رؤيته الواضحة وذاكرته القويّة بالإبداع في كلّ حقل طرقه.

نُشر كتابُ "مقطعية اللغة العربية"[1] سنة 1889م، واحتوى على 44 صفحةً من الحجم المتوسّط. وقد سعى هوداس، في هذا الكتاب، إلى اعتماد الطريقة المقطعية في دراسة مكوّنات اللغة العربية، وهي الطريقة التي من شأنها، حسب اعتقاده، أن تُسهّل على القارئ التعرّف على كلمات اللغة العربية، وعلى عدد مقاطعها، وأيضًا على فهم النصّ المنطوق والمكتوب.

تبنّى أوكتاف، في كتابه هذا، منهجيّةً علميّةً واضحةً تقوم على التدرّج من العام إلى الخاصّ، ومن السّهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركّب، ومن النظري إلى التطبيقي أيضًا. وقد وزّع عمله هذا إلى قسميْن رئيسيْن: أمّا القسم الأوّل فقد حمل عنوان "قراءةُ نصٍّ باللغة العربية الفُصحى"، وفيه تحدّث عن طرائق كتابة العرب للغتهم العربية الفُصحى، وعن القيمة الصوتية لبعض الحروف، وقدّم أمثلةً لتقطيع بعض الكلمات المُنفردة والجُمل المركّبة، ثم ألحقها بمجموعةٍ من التمارين التطبيقية، حتى يجعل عمله مزيجًا من النظري والتطبيقي، فيُحقّق أقصى قدرٍ من الفائدة. وأمّا القسم الثاني فقد اتّخذ له "قراءةُ نصٍّ باللغة العربية العاميّة" عنوانًا. وفي هذا القسم تحدّث أوكتاف عن بعض التغيّرات التي تُصيب الحروف عند النطق بها في هذا المجال،

(1) Octave Houdas, syllabaire de la langue Arabe. Maisonneuve et CH. Leclerc éditeurs. Paris. 1889.

وعن طرائق كتاباتها باللغة العاميّة وكيفيّات النطق بها، وذلك لمزيد إضفاء البعد التعليمي الجادّ في الكتاب، وأيضًا لمزيد تمهير دارسي اللغة العربية، من غير العرب خاصّة، بكيفيّات تفكيك بنية هذه اللغة، وتقليب النظر فيها، والوعي بها وعيًّا شموليًّا.

على أنّ هذا البعد التعليمي الجادّ، الذي تميّز به هوداس في أغلب كتاباته، لم يكن ليمنعه من تجاوز إطار الدراسة الخاصّ، وإدراج بُعْدٍ آخر إلى جانب البعد التعليمي الجادّ، ألا وهو البعد الترفيهي. إذْكثيرًا ما نجد صاحبَ الكتابِ يتوسّل بأمثلةٍ وحكاياتٍ شعبيةٍ طريفةٍ مُستمدّةٍ من الموروث السّردي الغزير لدى العرب عامّة والجزائر بصفة أخصّ - وهي معارف، ولئن كانت غير رسميّةٍ، وتأتي في مرتبةٍ ثانيةٍ بعد المعارف والعلوم الأخرى من حيث الأهميّة، إلاّ أنّها قريبةٌ منها في الخَطَرِ والشرَّفِ- يُمرّر من خلالها المعلومةَ في مسالك ممتعةٍ، على نحو ما نجده في حكاية **"الفارة البلديّة والفارة البريّة"**[1].

هذا التداولُ بين الجدّ والهزل، الذي يجعل الكاتب يُقدّم ما تميل إليه النفوسُ على ما يقتضيه الموضوع أحيانًا، هو ما يُبيّن

---

(1) والتي ترجمها بعد ذلك هوداس بـ:

La souris citadine et La souris campagnarde.

يُنظر:

Octave Houdas, syllabaire de la langue Arabe. P.40.

امتلاك المؤلّف للكفاية اللغويّة اللاّزمة، كما يُبين سعة اطّلاعه، وهو ما يُميزّ هذا الكتاب بالذات. وإلى ذلك، هو يُشكلّ أحد أسباب تأليفه، ويُضفي على منهجيّة الكاتب في التحليل شحنةً إضافيّة، يسهل عبرها تمرير المعلومة بطريقة سَلِسَةٍ تقبلها العقولُ المتلقّية لها، وتهتزّ لها الأفئدة.

4- قواعدُ اللغة العربيّة الواضحة:

نشر الكاتبُ هوداس هذا المؤلَّف[1] سنة 1897م. وقد سعى، في صفحاته التي تزيد على 260 صفحةً من الحجم المتوسّط، إلى تقديم رؤية شاملة عن قواعد اللغة العربية، وفيه اعتمد منهجيّةً واضحةً سعى من خلالها إلى تبسيط هذه القواعد للفرنسيّين وتلخيصها واختصارها، لتعويد هؤلاء المتلقّين على أداء اللغة العربية وفق قواعدها السليمة، ولتعميم الفائدة منها. والكتابُ عبارةٌ عن دراسةٍ واسعةٍ وتفصيليّةٍ عن علوم اللغة العربية، وهو مُقسّم إلى قسميْن، أو كتابيْن، كما يُسمّيهما أوكتاف نفسه، غير مُتكافئيْن: كتابٍ في علم الصرف وكتابٍ في علم النحو.

أمّا الكتابُ الأوّل، أي كتابُ علمِ الصرف، فقد سعى فيه إلى تبليغ الدّارس مهارات النطق والكتابة الصحيحة للغة والحديث

(1) Octave Houdas. Précis de Grammaire Arabe. Librairie Africaine et Coloniale. Paris. 1897.

الشفوي المُعبّر والسليم، فتحدّث عن طريقة قراءة الحروف الألفبائية العربية وكتابتها، كما تحدَّث أيضًا عن الحروف القمرية والشمسيّة، وعن العدد والمعدود في اللغة العربية، وقدّم أمثلةً واضحةً عن طريقة كتابة الأعداد المفردة والمركّبة وألفاظ العقود، وتطرّق إلى أيّام الأسبوع؛ استخرجها ورتّبها ثمّ ترجمها، وأشار إلى الأشهر القمريّة، فذكرَ عددَ أيّامِ كلِّ شهرٍ. وأمّا الكتابُ الثاني، كتابُ علمِ النحو، الذي لم يحتلّ مساحةً كبيرةً من جملة الكتاب ككلٍّ، فقد تحدّث فيه هوداس عن الأهميّة البالغة لعلم النحو الذي به "يُصلح المُتكلّمُ الفصيحُ لسانَه ويُقيم إعرابَه"، وعن بعض التراكيب النحوية، كما تطرّق إلى علم العروض الذي هو أداة من أدوات تعلّم العربية، إذْ لا ريب في أنّ علمَ العروضِ من العلوم المهمَّة التي ينبغي لدارس اللغة العربية الإلمام بها، ودونه لا يستقيم قراءة أيّ شِعرٍ. ولذلك عرّف المقصودَ بالبيت الشِّعري، وذكر أهمّ البحور العروضية، ثمّ فصّل القول في تفعيلاتِ كُلِّ بحرٍ وفي بعض زِحافاته وعِلَلِهِ، وتوّج عملَه بترجمةٍ لمعاني بعض الآيات من القرآن الكريم.

5- الإسلامُ:

سمحت الفترةُ الطويلةُ، نسبيًّا، التي قضاها "أوكتاف" في الجزائر، ومُخالطة مُثقّفيها، بالاقتراب من المسلمين والتعرَّف أكثر على تقاليد الدين الإسلامي الحنيف، الذي يُعتبر غريبًا عن

هذا الرجل ذي التكوين المسيحي بالأساس. ولكنّ اعتقاده المسيحي هذا لم يكن ليمنعه من سعْيه إلى فهم تقاليد هذا الدين الجديد، ومحاولة التأليف فيه، والتأثّر به تأثّرا صادقًا، وصل به الأمر حدّ التفكير، أحيانًا، في تغيير ديانته والامتناع عن الذهاب للصّلاة في الكنيسة، والتأثير في زوج ابنته "موريس دولافوس" الذي أصبح، جريًا على مهيع هوداس، من أشدّ المعجبين بالشعائر الإسلامية، لاسيما الصلاة منها، بحسب ما ترويه لنا ابنته "لويز دولافوس".[1]

ومن هنا تأتي قيمة كتابه هذا[2] الذي يُعتبر انعكاسًا صادقًا لما كان يحسّ به أوكتاف تجاه هذا الدين، على نحو ما سيتجلّى لنا لاحقًا.

احتوى الكتاب، الذي صدر عام 1904م، على 288 صفحةً. وقد سعى فيه أوكتاف إلى اتّباع طريقةٍ مُـتدرّجة، فقد فرّعه إلى سبعة عشر فصلًا ومقدّمةٍ وخاتمةٍ عامّة. بدأ الكاتبُ كلامه بعموميّات تخصّ الإسلام والمُسلمين، وفي الفصل الثاني والثالث قدّم لمحةً عن حياةِ الرسولِ محمد (ﷺ) قبل الهجرة وبعدها. أمّا الفصلُ الرابعُ فقد تحدَّث فيه عن قيمة القرآن الكريم باعتباره قانون المسلمين الأوّل، نظرًا لما يحتوي عليه من تعاليم

(1) Voir: Louise Delafosse. Maurice Delafosse. P. 188.
(2) O. Houdas. L'islamisme. Dujarric et Gie Editeurs. Paris. 1904.

وتفاصيل لأمور الدنيا والدين، وأمّا الفصلُ الخامسُ فقد خصّصه هوداس لإبراز قيمة الحديث النبوي (السنّة) باعتباره آليّةً مكمّلةً للقرآن الكريم وشارحة له، وتأتي بعده من حيث القيمة، وفي الفصول التالية التفت الكاتبُ للحديث عن أركان الإسلام الرئيسة؛ الصلاة والصوم والزكاة والحجّ، ثمّ تحدّث، أخيرًا، عن الغزوات والحروب الإسلامية، وعن مكانه المرأة المُسلمة، وعن بعض العادات والتقاليد التي تتميّز بها المجتمعات الإسلامية ككلّ.

الفصل الثاني
مُختارات ممّا قام بترجمته

1- الكُتبُ المُترجمة:

سعى هوداس، أيضًا، وبمُعاضدة مُستشرقين آخرين، إلى ترجمة العديد من الأعمال الأدبية وتحقيقها، وذلك حرصًا منه على تدبّر معانيها وفهمها وتأويلها في مرحلة أولى، ثم تسهيل توصيلها إلى القارئ غير العربي وتفهيمها إيّاه في مرحلة ثانية. ولعلّ من أهمّ الكتب التي ترجمها وحقّقها نجد:

أ- كتاب "تاريخ السودان" لمؤرّخ مملكة السِّنغَاي:

عُرف عبد الرحمان السّعدي، مؤلّف كتاب تاريخ السودان، بمؤرّخ مملكة السِّنغاي[1]- المملكة التي تمتدّ حدودها من المحيط الأطلسي غربًا إلى نيجيريا الحالية شرقًا[2]- وقد وُلد في

(1) يُكتب هذا الاسم أحيانًا السُّونغايْ أو الصُّنغاي أو السّنغيْ، لكننا نميل إلى استعمال مفردة "سنغاي" بسبب تواترها في أكثر من مرجع ومصدر.

(2) وقد أُطلق هذا الاسم، أوّل ما أطلق، على ذلك الجزء من وادي النيجر بين بوريم وساي، وعلى الشعب الذي يسكن هذه المنطقة، وعلى =

مدينة تمبكتو، عاصمة مالي، وعاش ما بين (1596م – 1653م)، وهو ينحدر من أسرةٍ عريقةٍ في العلم بهذه المدينة، مارس القضاء والإمامة في مدينة جنى، التي اُعتبرت آنذاك مركزًا علميًّا إسلاميًّا مهمًّا[1]. وكتابه تاريخ السودان كتابٌ من الحجم الكبير، يضمّ 326 صفحةً، وقد أتمَّ السعدي تأليفه بتاريخ 5 ذي الحجّة عام 1063هـ الموافق لـ 27 أكتوبر 1653م.

ويعود الفضلُ في تحقيق وترجمة ونشر كتاب تاريخ السودان وذيوعه وتسهيل تداوله بين الناس إلى أوكتاف هوداس الذي ترجمه سنة 1898م[2]، ونشره، لأوّل مرّة، رفقة تلميذه بنوة

= المملكة التي أقامها هذا الشعبُ، وهي مملكة ظهرت نواتها منذ منتصف القرن السابع الميلادي. وقد اشتغل سكّان هذه المملكة بالتجارة، ونَمَّوا علاقاتهم ووطّدوها مع دولة غانا وبلدان المغرب الشمالية كالجزائر وتونس وليبيا ومصر. ينظر في هذا الإطار:
جميلة إمحمد التكيتك، مملكة سِنغَاي الإسلاميّة في عهد الأسْكِيَا محمد الكبير، 1493– 1528، ط،1، منشورات مركز جهاد الليبيّين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية، رقم، 26، 1998، ص، 32.

(1) يُنظر: عبد السلام أنويكة، حول تاريخ السودان الغربي للمؤرّخ السعدي، علامات منهجيّة وتقاطعات، دوريّة كان التاريخيّة، مؤسسة كان للدراسات والنشر، س، 11، ع، 39، القاهرة، مارس، 2018، ص ص، 122، 155.

(2) Michel Izard: MOOGO. L'Emergence d'un espace étatique ouest- africain au XVI[e] siècle. Etude d'anthropologie historique. Edition Karthala. Paris. 2003. P. 36.

(Benoist) قُبيل وفاته بقليل، أي بين سنتيْ (1913م- 1914م)، بواسطة مدرسة اللغات الشرقية الحيّة بباريس، على نحو ما أشار إليه أوكتاف هوداس نفسه في مقدّمة ترجمته لهذا الكتاب[1].

ولعلَّ أهمَّ ما يُميّز ترجمة هوداس هو أنّها تحتوي على مقدّمة عامّة شافية كافية تُبرز دواعي تحقيق الكتاب وترجمته من لغته الأمّ إلى لغة ثانيةٍ، هي الفرنسية. فهوداس يعتبر هذا الكتاب من أوفر المصادر عن تاريخ السودان، وخاصة العهد الغربي الاستعماري للسّنغاي، لأنّ السّعدي قد تطرّق فيه إلى العديد من المواضيع؛ فلقد تحدّث عن الممالك الإسلاميّة في السودان، وعن الدعاة والقضاة الذين سكنوا تلك المُدن، وعن السّلاطين والأمراء وأئمّة المساجد، إلى غيره من مكوّنات المجتمع الإسلامي. ولم يخْفِ هوداس، منذ بداية ترجمته لهذا الكتاب، إعجابه بالسّعدي، وبأسلوبه في الكتابة؛ فهو، على حدّ تعبيره، كان يكتب **"دون تحضير مُسبقٍ، وإلى ذلك كان يتجاهل أعرافَ اللغةِ الأدبيةِ التي يكتب بها، وكان شُجاعًا، لا يتردّد في استعمال مفرداتٍ غامضةٍ**

(1) ينظر في هذا الصدد:

Tarikh Es-Soudan: Abderrahman Ben Abdellah Ben ‘Imran Ben ‘Amir Es -Sa‘di. Texte Arabe édité et traduit par: O.Houdas avec la collaboration de: Edem Benoist. Librairie d’Amérique et d’orient. Paris. 1964.

وتراكيب جديدة لا نعرفها ولم نجد لها مكانًا، بعدُ، ضمن مفردات المعاجم العربية وتراكيبها"[1].

ب- تذكرةُ النّسيانِ فِي أَخْبَارِ مُلُوكِ السّودانِ:

هذا الكتابُ هو المخطوط الثاني الذي حقّقه هوداس، رفقة تلميذه بنوة، ونقله إلى اللغة الفرنسية. والكتاب المُحقّق والمُترجم يتكوّن من 414 صفحةً، من الحجم المتوسّط. وتأتي قيمة هذا العمل من كون مؤلِّفه غير معلوم إلى الآن (ومن هنا نفهم لماذا تجنّب هوداس، بذكاء، ذِكْرَ صاحبِ الكتاب في تحقيقه، واختار أن ينشره خلوًا من مؤلَّف يُنسب إليه حتى يكون موضوعيًّا ويتجنّب النّقد)، ثم من كونه، أيضًا، الترجمة الأولى للنسخة الوحيدة لـ"تذكرة النسيان" التي تمكّن هوداس من الوصول إليها ووضعها تحت تصرّفه. وهي النسخة التي انتهى صاحبُها من تأليفها بتاريخ 17 جويلية 1751م، بحسب ما ذكره هوداس نفسه"[2].

سعى هوداس، في مقدّمة هذه الترجمة، إلى ذكر أهمّ ميزات هذا الكتاب وبعض الأخطاء والهنات التي احتوى عليها، وكذلك

---

(1) ينظر:

Tarikh Es- Soudan.P. IV.

(2) Tedzkiret En-nisianān Fi Akhbār Moulouk Es-Soudān. Traduction Française. Texte Arabe Edite par: O.houdas, avec la collaboration de Edem. Benoist. Librairie d'Amérique et d'orient. Paris. 1966. P.III.

منهج صاحبه في التأليف والمصادر التي اطلّع عليها أو استفاد منها في تأليف كتابه. ولقد اعتبر هوداس أنّ هذا الكتاب يُعدُّ "معجمًا سير ذاتيًّا، يسعى إلى تقديم السير الذاتية لأهمّ باشوات مدينة تمبكتو (les pachas de Tombouktou) منذ سنة 1590م"[1].

ويُضيف، مُبديًّا رأيه في منهج صاحب الكتاب، قائلًا: "لقد راعى المؤلّفُ، في ترتيبه لأصحاب هذه السِّيَرِ، الترتيبَ الألفبائيَّ، ولكنّه لم يُراعِ، في المقابل، ترتيب الحروف الألفبائيّة ذاتها ورتّبها ترتيبًا غريبًا بعض الشيء؛ فهو مثلًا يبدأ بحرف (الجيم) ثم ينتقل إلى حرف (الميم)، ومن ثمّة يعود إلى حرف (العين)[...] وفي العموم فلقد كان أسلوب المؤلّف واضحًا وأفكاره متنوّعةً، وأكثر ثراءً من تلك الأفكار التي نجدها عند مؤلّفي شمال إفريقيا"[2].

ت- تاريخ الفُتّاش:

من الواضح أنّ شغفَ "هوداس" بتحقيق الآثار التي كتبها المسلمون الأفارقة السابقون كان بلا حدودٍ، ذلك أنّه قد واصل في التنقير حول تلك المصادر المنسية والمحاطة بجملة من الشكوك والتكهّنات. ومن أبرز الأعمال الإضافية التي قام بتحقيقها ونشرها كتاب **"تاريخ الفُتّاش في ذكر الملوك وأخبار**

(1) Tedzkiret En-nisianān. P. IV.

(2) Tedzkiret En-nisianān. P.P. IV- V- VI.

الجيوش وأكابر الناس" للقاضي "محمود كعت بن الحاج المتوكّل التنكبتي"، الذي وُلد في منطقة كورما غرب جاو في السودان، في عام 1463م، وعاش عمرًا مديدًا، "حتّى خاف من أنّه لن يموت"[1]، ثم تُوفيّ في عام 1593م. وهو ينحدر من أسرة **"كعت"** الشهيرة في السودان، والتي برز منها أعلام المؤرخين السودانيين.

وتعود أهميّة هذا الكتاب إلى كونه، بالأساس، قد مثّل مصدرَ جـدلٍ كبيرٍ في الأوساط الثقافية، على نحو ما أشار إليه مُحقّقُ كتـاب الفُتّاش في نسخته العربية الحديثة، والصادرة عن دار الكتـب العلميـة ببيـروت لسنة 2012 "حماه الله ولد السالم"[2].

---

(1) فهو، بحسب هوداس وديلافوس، قد عاش 125 سنةً.

(2) ويعود سبب هذا الجدل في مدى نسبة الكتاب إلى مؤلِّفِه الصحيح، وعلى الرغم من ذلك، فلقد سعى المُحقّق حماه الله ولد السالم إلى الفصل في هذه المسألة، وقال في مقدّمة تحقيقه: "إنّ الكتاب يضمّ روايات مختلفة تعود إلى عدّة مؤلّفين من الأسرة ذاتها، ما يجعل من نسبته إلى مؤلّف واحدٍ أمرًا صعبًا. وأوّل المؤلّفين هو الفقيه محمود كعت (الأوّل) وكان كاتبًا للحاج أسكيا محمد (1493–1528م)، وأرسله في مهمّات رسمية بالغة الأهميّة. وقد صرَّح محمود كعت الأوّل أنّه بدأ تحرير تاريخه عام 1519م. وثاني المؤلّفين الثلاثة هو القاضي محمود كعت، وقد عاصر سلطان السونغاي أسكايا داوود (1549– 1582م)، وكان من رجال البلاط المقرّبين. وثالث المؤلّفين هو المُسمّى ابن المختار، وقد عاش في القرن الحادي عشر الهجري (17م)، ويكاد =

كما أنّ أهـمّيتـه تعـود أيضًا لكـون صاحب الكتاب قد ألّفه وهو في سنّ الخمسين من عمـره[1]، وهــو مــا سمح له بأن يكون خيرَ شاهـدٍ وخيـرَ موثّقٍ للكثيـر مـن الحوادث التي عاشها، والمعلومات الاجتماعية الغزيرة التي التقطها من أفواه الناس والـروّاة وأعاد، بالكتابة، تثبيتها وحمايتها من خطر الضياع أو التلف والنسيان.

ث- نزهةُ الهادي للإفراني:

يُعدُّ هذا الكتاب[2]، الضخم نسبيًّا، مصدرًا تاريخيًّا ذا مكانةٍ علميّةٍ وأساسيّةٍ لكلّ من أراد التعمّق في فهم تطوّر الكتابة

= الباحثون يتفقون على تسميته بابن المختار، وأنّه حفيد محمود كعت الأوّل. واجتهادنا أنّ ما جمعه "كعت الأوّل" هو ديوان للوقائع والأحداث لم يكتمل، ولم يتخذ صيغة المؤلّف الجامع. ويتّضح بجلاء أنّ كعت الثاني هو مُحرّر مُعظم العمل، وناقل الكثير من رواياته الثمينة من مصادر مرويّة بعضها من والده (أو عمّه) كعت الأوّل، وشيوخ مُعاصرين له، ومصادر مكتوبة هامّة..." ينظر:
القاضي محمود كعت، تاريخ الفُتّاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، تحقيق، حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2012، مقدّمة التحقيق، ص، 5- 6.

(1) Mahmoud Kâti Ben El - Hâdj El – Motaouakk El Kâti et l'un de ses petits – fils: Tarikh El - Fettach" ou Chronique du chercheur. Traduction Française par O . Houdas et M. Delafosse. Paris.1913.

(2) واسمه الكامل: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي.

التاريخية في تاريخ المغرب عامة، وفي تاريخ السعديّين[1] على وجه الخصوص. والإفراني، مؤلّف هذا الكتاب، هو محمد الصغيّر ابن الحاج محمد بن عبد الله، وُلد بمرّاكش سنة 1670م، وتُوفّي، بالمدينة نفسها، سنة 1742م[2]، وانتهى من تأليف كتابه سنة 1726م. ولقد سعى هوداس، مدفوعًا برغبته في الاهتمام بالأعمال التاريخية النادرة، إلى ترجمة هذا العمل[3] الذي احتوى على واحدٍ

(1) السعديون سُلالة من الأشراف، حكمت المغرب من سنة 1554م إلى سنة 1659م. وقد بدأ السعديون في نشر دعوتهم عن طريق الفرق الصوفية في جنوب المغرب، وحاربوا حكّام المغرب الوطّاسيين، ثم قادوا حركة المقاومة ضدّ الوجود البرتغالي في البلاد، واستولوا على مراكش سنة 1525م، ثم أكادير سنة 1541م بعد طرد البرتغاليين منها، وأخيرًا دخلوا مدينة فاس سنة 1549م، وقضوا على الوطاسيين سنة 1554م. في تفصيل ذلك، ينظر الموقع الإلكتروني الآتي:
http://www.hukam.net/family.php?fam=65.

(2) ينظر ترجمته في:
يوسف إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، ج،2، ص، 1668 – 1669.

(3) وهو عمل صدر في أجزاء ثلاثة. وقد خصّص هوداس الجزأيْن الأوّلين للنص العربي، في حين ترجم هذا النص إلى الفرنسية في الجزء الثالث من الكتاب ككلّ. ينظر:
Mohammed Esseghir Ben EL Hadj Ben Abdallah Eloufrâni. Nuzhat al- hâdi. Histoire de la Dynastie saadienne au Maroc (1511- 1670). Trafduction Française par. O. Houdas. Paris Ernest Leroux, Editeur. 1889.

وثمانين فصلًا، بالإضافة إلى مقدّمةٍ مركّزةٍ سعى فيها هوداس، جرْيًا على عادته في تحقيق الأعمال وترجمتها، إلى ذكر أسباب التأليف والصعوبات التي اعترضته وأهمّ إيجابيّات الكتاب وسلبيّاته.

اعتمد هوداس، في ترجمته الفرنسية لهذا العمل، على مخطوطاتٍ ثلاثٍ، كما أشار إلى ذلك في مقدّمة عمله: فأمّا المخطوطُ الأوّلُ، المكتوبُ بخطٍّ مغربيٍّ واضحٍ وجميلٍ، فقد حصل عليه بالاقتناء في مدينة تلمسان الجزائريّة، وتمّ نسخه سنة 1293م، وأمّا المخطوطُ الثاني، الذي زوّده به قاضي تلمسان "سي شُعيب"، هكذا أسماه هوداس، فإنّه أقلّ اكتمالًا وأقلّ عنايةً واهتمامًا من سابقه. ولكنّه، في العموم، وباستثناء عددٍ قليلٍ من التغييرات والهنات الصغيرة، يتّفق إلى حد ما مع المخطوط الأوّل. وأمّا ثالثُ المخطوطاتِ، فقد حصل عليه من مكتبة الجزائر"[1].

ج- الجامعُ الصحيحُ؛ أو صحيحُ البُخاري:

لكي تكون الصورةُ مُكْتملةً ينبغي أن نذكر، ههنا، كتابًا آخر قام أوكتاف هوداس بترجمته، وهو كتاب "صحيح البُخاري"، أو **"الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه"**، الكتاب المشهور الذي **"ملأ الدنيا وشغل النّاس،**

(1) يُنظر تفصيل ذلك في:
Mohammed Esseghir Ben EL Hadj Ben Abdallah Eloufrâni. Nuzhat al- hâdi. P. VI – VII.

وأُريق حوله مدادُ غيرُ قليلٍ"[1]، لصاحبه الإمام **"أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاريّ"**[2]، الذي يُعتبر واحدًا من أعظم العلماء والحُفّاظ والمُحدّثين في تاريخ الحضارة العربية الإسلاميّة، قال فيه أهلُ بغداد يمدحون:

المُسْلِمُونَ بِخَيْرٍ مَا بَقِيْتَ لَهُمْ
وَلَيْسَ بَعْدَكَ خَيْرٌ حِينَ تُفْتَقَدُ[3]

وأضاف آخر: **"سمعتُ يحيى بن جعفر يقول: لو قدرتُ أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل لفعلتُ، فإنّ موتي يكون موت رجلٍ واحدٍ، وموت محمد بن إسماعيل ذهابُ العِلْمِ"**[4].

---

(1) التفت الكثيرُ من النقّاد والباحثين، من العرب وغير العرب، لهذا الكتاب بالنقد والتحليل، وخلّفوا لنا العديد من الآراء والتصوّرات التي تتراوح بين السّلب والإيجاب. يُنظر، على سبيل المثال، هذه الآراء في:
- الحسيني عبد المجيد هاشم، الإمام البُخاري محدّثا وفقيهًا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د، ت، ص، 231 وما بعدها.

(2) وُلد الإمام البُخاري في مدينة بخارى، إحدى مُدن أوزبكستان حاليا، سنة 194هـ وتوفّي في "خرتنك"، قرية من قُرى سمرقند، سنة 256هـ. يُنظر ترجمته في:
- الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السّلام وأخبار محدّثيها وذكر قُطانها العلماء من غير أهلها ووارديها، حقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه، بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط،1، 2001، المجلّد الثاني، ص 322.

(3) المرجع السابق نفسه، المجلّد الثاني، ص 343.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 345.

والكتابُ، في نسخته المُترجمة، ضخمٌ، يقع في أجزاء أربعةٍ، كلّ جزءٍ يحتوي على قرابة 700 صفحة[1]. وقد ترجم هوداس الجزء الأوّل والثاني منه بمعيّة تلميذه وليام مارسيه، وزاد على ذلك بأن ترجم، بمفرده، الجزء الثالث والرابع. وقد انتهى المترجمان من ترجمة هذا المُنجز الضخم بباريس، في شهر فيفري من سنة 1914م، وأطلقا عليه عنوان "les Traditions islamiques"[2] أو"**التقاليد الإسلاميّة**". وهذا العنوان، الذي به طاف صحيحُ البُخاري في الأسواق الغربية، ليس، بطبيعة الحال، الترجمة الحرفيّة لكتاب "البُخاري" ، كما يُلاحظ القارئ، وإنّما هو من عمل المترجمين بلا شكّ، إذ إنّ المترجمين قد آثرا تغيير العنوان حتى يُصبح أكثر وضوحا وتعبيرا عن محتوى الكتاب وقصد المؤلّف، وفق تصوّرهما[3].

وصحيحُ البُخاري هو واحدٌ من أهمّ تلك الأعمال التي لطالما كان أوكتاف هوداس يفخر بترجمتها. وإلى ذلك، هو من أهمّ الأعمال التي ستظلّ خالدةً في ذاكرة قرّائه الناطقين بلغة

(1) Les traditions islamiques, El-Bokhâri, (4Tomes), traduites de l'arabe avec notes et index par, O.Houdas et W. Marçais, Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1984.

(2) التقاليد الإسلامية.

(3) يُنظر:

- Malcolm Clark, L'islam pour les Nuls, Traduction, Maylis Gillier, Traduction, Malek Chebel, Edition First, Paris, 2008, P.245.

الضّاد وغير الناطقين بها، وذلك لسببيْن رئيسيْن؛ أمّا أوّلهما فهو حاجةُ القارئ الغربي لمثل هذه الترجمة الصّادرة عن رجلٍ ذي تكوينٍ علميّ رصينٍ ويحظى بالتبجيل والاحترام، والتي تُعّد ترجمةً فريدةً بحقّ، لاسيما في مثل هذاك السّياق التاريخي المخصوص، الحاضن لعمليّة الترجمة برمّتها، والذي ظهرت فيه العديد من الحملات التبشيريّة غير الأكاديمية التي كانت تهدف إلى الحطّ من رفعة العقيدة الإسلاميّة والشكّ فيها وفي أصل القرآن، والضغط عليهما بشكلٍ لا شفقة فيه ولا رحمة من أجل نيْل حظوةٍ ما. وأمّا ثانيهما، فيتمثّل في الجهْد الكبير الذي كان صاحبُ الترجمة قد قام به، بمعيّة زميله، في سبيل إخراج "صحيح البُخاري" في أبهى صورةٍ مُمكنةٍ. نقول هذا على الرغم من أنّ هوداس لم يُضف إضافاتٍ شامخةً لهذا الكتاب، ولم يضع، جريْا على عاداته في تحقيق أغلب الكُـتب وترجمتها، لهذه الترجمة مقدّمةً يُفسّر فيها أسباب ترجمة كتابه المُختار، والظروف التي أحاطت بهذه الترجمة، فضلًا عن أنّه لم يعرّف بصاحبه لا ولا حتّى بمنهجه في التأليف. ولكن المُطّلع على الإضاءة التي صدّر بها هوداس المجلّدَ الرابعَ، والأخير، من هذه الترجمة سيُدرك كمّ الصعوبات التي واجهها هذا المُترجم في "صِناعة" ترجمته. فهوداس كان مُدركًا للصعوبات هذه، وكأنّما قصد بهذه الإضاءة تهيئة المُتلقّي المُقبل على مُطالعة ترجمته، كي لا يلومه بعد ذلك إذا ما وجد نقصا أو تفطنّ إلى خطأ ما. وهو أمرٌ منطقيٌّ، بل ومفهوم، لا سيما إذا ما وضعنا في بالنا أنّ هوداس قد أنهى ترجمة هذه العمل في

أخريات أيّامه، أي في تلك الفترة التي شهدت فيها حالته الصحيّة تدهورًا ملحوظًا. هذا ما نستنتجه من خلال قراءتنا لما كتبه هوداس، بشكلٍ موجعٍ، في تقديمه للجزء الرابع، الذي لم يتجاوز الصفحتيْن، والّذي اعترف فيه بحجم التعب الذي أصابه بعد أن أمضى مدّةً غير قصيرةٍ يُنقّب في مسالك هذا الكتاب الوعرة. وهو الأمر الذي جعل ترجمته ناقصةً، وفق تعبيره، وفي حاجة إلى مزيد من العناية والتوثيق، وإذن، إلى يدٍ ثانيةٍ فطنة وخبيرة بعلوم اللغة العربية، تتسلّم عنه المشعل، لتُضيف بعض "الرتوش"، وتسدّ الثغرات التي خلّفها المُـترجمُ وراءه، فتتجاوز هذا الإشكال، وتُكمل ما لم يستطع هو إكماله. ويُمكن أن نعود، ههنا، بشيء من التفصيل إلى هذه المسألة، فنذكر بعض ما تحسّر عليه هوداس بُعيد إنهائه لترجمة الجزء الرابع من "صحيح البخاري"، قال هوداس مُقرّرا:

"لقد تعكّرت حالتي الصحيّة لفترة طويلة جدًا، الأمر الذي أدّى إلى تأخّري في إكمال ترجمة المجلّد الرابع والأخير من صحيح البخاري. والواقع أنّ مرضي هذا وتقدّمي في العمر، إضافةً إلى ضعف بصري، هي أشياء ما عاد بإمكانها أن تزول عنّي. لم تسمح لي هذه الأسباب جميعها بتجميع معلوماتٍ شافية حول الكتاب، وإغنائه بفهارس كافية كنت أنوي إضافتها إلى هذه الترجمة الخاصّة بي. لذلك كان ينبغي لي أن أترك هذه المهمّة

الأخيرة لباحث آخر مُتضلّع بعلوم اللغة العربية، وأصغر منّي سنّا وأكثر صبرًا وشجاعةً، حتى ينهي هذه المهمّة على أكمل وجهٍ. وفي الواقع، إنّني سعيد حقّا، بسبب كونِ السيّد "لوسيان" قد أبدى استعداده التّام للقيام بهذه المهمّة الجليلة.

وبغضّ النظر عن ما قد يتمّ إضافته في هذه الفهارس والحواشي التي أتحدّث عنها، فلن يُساهم ذلك، في اعتقادي، في حيازة رضا القرّاء التامّ؛ ولكنّ القيام بهذه المهمّة الصعبة على أكمل وجهٍ، سيُساعد في الرقيّ بهذا الكتاب وحيازة المكانة التي هو جدير بها. إنّ القراءة المتأنيّة لصحيح البُخاري ستمنح، دون شك، الجمهورَ الواسعَ فكرةً دقيقةً قدر الإمكان عن أصلِ دين النبيّ محمدّ (ص). ومن خلال القيام بمقارنة بسيطةٍ بين النَسخة الأصلية والأخرى المُـترجمة، سيكون هذا القارئ قادرًا على الحكم ليس فقط على التحوّلات التي مرّ بها الإسلاميّون في ماضيهم، ولكن أيضًا، على تلك التحوّلات التي سيمرّون بها في مُستقبلهم. إنّه لمن الأهميّة بمكان، خاصة بالنسبة إلينا كفرنسيّين، أن نكون على بيّنة بالتطوّر المحتمل لهذا الدين الإسلاميّ الذي بلغ شأوًا بعيدًا من الحيويّة، لدرجة يبدو كما أنّه لم يفقد شيئًا من تدفّقه وحيويّته، على الرغم من مرور ألف وثلاثة عشر مائة عام على تاريخ نشأته (...) لذلك، فمن المهمّ، في الأحوال كلّها، أن نعرف، من خلال تكريس وعي أعمق بعقائد هذه الشريعة

الإسلاميّة، أن نتجنّب إصدار أحكام ومُغالطات لا داعي لها وخطيرة في أحايين كثيرة..."[1].

على أنّه من اللاّزم علينا أنّ نُشير، ههنا، إلى أنّ المُتصفّح لهذا الكتاب بأجزائه الأربعة يجد أنّ أوكتاف هوداس لم يكن، بالرغم من اعترافه بعجزه عن إخراج صحيح البُخاري على النحو الذي كان يودّ إخراجه عليه، مجرّدَ ناقلٍ سلبيّ وكسولٍ لنصوص الآخرين التي لطالما قُرئت ودُرست وعُلّق عليها، وإنّما كان فاعلًا فيها لا منفعلًا. فلقد تابع، قدر الإمكان، السّيْرَ في الذي سلكه من قبل، يذرع في "صحيح البُخاري" جيئةً وذهابًا، مُتسلّحًا بما أُتيح له من تكوين علميّ عميق، يُعلّمه كيفيّة التصرّف في ترجمة النصوص، يتدبّر أغلب ما يُعرض عليه فيها، ويُفتّش في وجاهة استخدام بعض المُصطلحات والصيغ التعبيريّة في صفحاته ويقدّم لها تعريفا يزيد من توضيحها، لا سيما لغير الناطق باللغة العربية، ويدفع تهمتْي الغموض وسوء الاستعمال عنها، ويخلع عليها المزيد من الحقيقة والمصداقيّة، ليؤشّر، في النهاية، على ماهيّة منهجه العلميّ الصّارم والمنتظم الذي يحتاجه فهمُ مثل هذه الأعمال وترجمتُها. وبالتالي، فيُمكننا أن نعثر في هذه الترجمة، أيضا وكما في غيرها من الترجمات، على الروح العلميّة نفسها التي ترجم

(1) O. Houdas, Les traditions islamiques, El-Bokhâri, T.4. P. VII- VIII.

بها هوداس صحيح البُخاري. ولعلّ ما يؤكّد أهميّة هذه العمل الذي قام به المُترجمان نفاذُ هذه النسخة المُترجَمة من الأسواق، وإعادة طبعها ثانيةً سنة 1977[1].

2- دوافعُ الترجمةِ:

تعدّدت الأسبابُ التي كانت تُحرّك أوكتاف هوداس وتدفعه نحو تحقيق جملةٍ من المخطوطات العربية النادرة وترجمتها، وتباينت دوافعها. وقد يكون بوسع الباحث التعرّف، بيُسرٍ، على بعض هذه الأسباب والدوافع، إذْ من الواضح أنّها أسباب ذاتية أحيانًا، شديدة الصّلة بعلاقة المُترجم باللغة العربية التي كان يغار عليها، وهو ليس من أبنائها، فقد أحسن، وهو الغريب عنها، خدمتها أكثر من الأصيل أحيانًا. ولو لم يفعل ذلك لكان، ربّما، قد ضاع جزءٌ غيرُ قليلٍ من التراث العربي المنسيّ الذي يظلّ دائمًا في حاجة إلى مزيد من الفهم والتنقير في كنوزه، وحفظها من التلف والحرق والضياع والنسيان، أو من التبديلات والزيادات، وغيرها من الخطوب المدلهمة التي أصيبت بها كُتب العرب القُدامى. وثمة أسباب أخرى دفعته إلى ترجمة هذه الكتب، وهي أسباب علميّة لها علاقة وطيدة بتخصّصه بالأساس، وتعود إلى رغبته في فهم هذا التراث الذي لابدّ من التعمّق في تحليله والتعرّف إلى

(1) Malcolm Clark, L'islam pour les Nuls, P. 245.

أسراره الخفيّة، والتبحّر فيه، من خلال نفض غُبار النسيان عن هذه المصادر التي أصبحت نادرةً لقلّة ما يُطبع منها ويُستشهد بها، ويعود الفضل إلى هوداس في التعرَّف إليها. ولهذا لم يكن صاحبُ الترجمة يتردّد في التعبير عن امتنانه للأشخاص الذين سهّلوا عليه الوصول إلى بعض المخطوطات النادرة، لأنّهم بفعلهم هذا، وكما ورد على لسانه هو في مقدّمة ترجمته لكتاب تذكرة النسيان مثلًا، **"لن يجعلوا هذا الكتاب مفيدًا لمعرفة تاريخ البشرية فحسب، بل سيسهمون إلى حدّ كبير في نشر اللغة العربية والتعريف بها من خلال تقديم ترجمةٍ فرنسيّةٍ لجملة هذه الكتابات المختلفة"**[1].

3- منهجهُ في الترجمة:

كانت لسُمعة هوداس العلميّة وحسن اطّلاعه وعلاقته بالبلدان العربية قيمة كبيرة في ترجمة هذه المخطوطات. وقد سهّل عليه ذلك اتّباع منهجٍ بعيدٍ عن الاختلاق ولصيقٍ بالموضوعيّة، مُشبعٍ بالتمحيص وسليم من الشوائب، إلاّ فيما ندر. فلقد كان هوداس يعلم أنّ الترجمة والتحقيق ليسا بالأمر الهيّن، وإنّما فيهما من المكابدة والمعاناة ما يتجاوز، أحيانًا، تصنيفَ كتابٍ جديدٍ. وهذا ما جعله لا يكتفي بنشر المخطوط وترجمته ثمّ الإشارة إلى تحقيقه قصب السّبق في نشره له، إنّما كان يكتب له مقدّمته التي يحاول فيها دراسة

(1) Tedzkiret En-nisianān. P.XIII.

مضمون المخطوط الذي ينشره وتاريخه، ويُعرّف به وبمؤلّفه، إن تمّ الاتّفاق عليه، وبالوظائف التي تقلّدها في حياته المهنيّة، وبمنهج تأليفه، وطريقته في العرض. وكان يُضيف، رغبةً منه في إبراز سيطرته على أدوات بحثه، إلى النصّ فهارسَ متنوّعةً تسهم في كشف محتوياته والإفادة منه قدر المستطاع، واختصارات وهوامش بالفرنسية غالبًا، توضيحًا أو تصحيحًا لما فيه من إشارات غامضة تحتاج إلى توضيح وتصحيح، وتسهيلًا للقارئ غير العربي للعمل فيه والثقة به والاطمئنان إليه. وغنيّ عن القول إنّ هناك العديد من الكتب العربية القديمة التي تحتاج إلى مثل هذا التوضيح.

وإلى ذلك، فقد وجد أوكتاف، في بعض المخطوطات، الكثيرَ من الأخطاء النحوية وبعض الألفاظ الغامضة والغريبة عن اللغة العربية أحيانًا. وهذا هو السبب الذي جعله لا يتردّد في الانتقال من الحديث عن إيجابيات بعض المخطوطات إلى الحديث عن السلبيّات فيها، كما أنّ هذا السبب ذاته، هو ما اضطّره، رفقة مساعديه في الترجمة، إلى انتقاد، حيث وجب الانتقاد، بعض الأعمال المُترجَمة بنزاهةٍ، هادفين من وراء ذلك إلى غرْبلة السّليم من الفاسد فيها، وإلى تصحيح بعض المعلومات التاريخية أو الأخطاء المُنفّرة التي تسرّبت إليها وبدت لهم واضحةً للعيان، وبتغيير بعض المُصطلحات غير المناسبة بأخرى أكثر اتساقًا مع سياق الكلام، وبإبراز الأسباب التي جعلتهم يُغيّرون لفظةً وردت في المخطوط الأصلي مكان أخرى من عندهم، على نحو ما تمّت الإشارة إليه في مقدّمة ترجمة

كتاب "تاريخ الفُتّاش"، مثلًا، يقول هوداس عن هذا الكتاب:

"لم يكن المخطوطُ الأصليُّ دقيقًا بالقدر المطلوب، ويجب أن نضع في بالنا أن هؤلاء المؤلّفين لم يكونوا عربًا بدرجة أولى، أو حتى أشخاصًا يتكلّمون اللغة العربية الفصيحة، لغتهم المعتادة هي لغة "السنّغاي". ولذلك فليس من المستغرب ألاّ تكون اللغة التي كتبوا بها لغةً عربيةً فصيحةً، فهي أحيانًا ما تكون ممسوخةً غامضةً ليست من العربية وليست العربية منها، ودون عنايةٍ من قبل المُحرّر، ممّا يجعل من تفسير بعض الفقرات أمرًا كزًّا للغاية؛ فأخطاءُ التركيبِ عديدةٌ، وكذلك ثمّة الكثير من الأخطاء النحوية والشكليّة [...] وبسبب ذلك سعينا، في هذه الترجمة، إلى تصحيح بعض هذه الأخطاء، لاسيما تلك التي بدت لنا خشنةً عاميّةً وغيرَ فصيحةٍ، وذلك من خلال الإشارة، في الهوامش، إلى تلك الألفاظ التي اقترحناها لتعويض الألفاظ والمصطلحات الأخرى السابقة. لكنّنا، وبالرغم من ذلك، فلقد تركنا، عن طواعيةٍ، جملةً أخرى من الألفاظ بالرغم ممّا تتّسم به من غرابة أحيانًا، خاصةً متى بدا لنا أنّ تركها، في ذلك السّياق، مُفيدٌ، ومن شأنه أن يُقدّم لنا، وللقارئ من بعدنا، معلوماتٍ مفيدةً في سياق الكتاب، وذلك حتى لا نُغيّر من الشكل العام للكتاب"[1].

(1) Mahmoud Kâti Ben: Tarikh El - Fettach". P. XIV.

وفي كتاب "نزهة الحادي" للإفراني سعى هوداس، أيضًا وآناء ترجمته لهذا الكتاب، إلى إبراز منهج المؤلّف، وراح يبحث في ماهية هذا النظام العامّ الذي يدور وفقه الكتاب، ليتحقّق أصائبٌ هو أم يستولي عليه بعض النّقص؟ فكان أن أشار، في مقدّمة ترجمته، إلى أنّ "الإفراني- كغيره من العلماء المسلمين-لم يحدّد لعمله أيّ تصميمٍ، فسار، مثلهم، على غير هدى، يُسجّل ما يتوارد على ذهنه من أفكار، دون أن ينتبه أو يهتمّ بما سيؤدّي إليه ذلك من اضطراب"[1].

هذه الآراء، التي سيُبيّن بعد ذلك الباحثُ عبد اللطيف الشادلي، مُحقّق هذا الكتاب ذاته في طبعته الحديثة نسبيّتها، على ما نحو ما سترى أيّها القارئ لاحقًا، تُبرز هي وغيرها، ورغم كلّ شيء، حرص هوداس على الإيفاء لمنهجه في التحقيق والترجمة من ناحية والحفاظ، قدر الإمكان، على أصالة النصّ المحقَّق كمًّا وكيفًا، فلا يُغيّر فيه إلاّ ما بدا له ضروريًّا ويستدعي التغيير.

بيد أنّ هذا العملَ الضخمَ الذي قام به هوداس لم يُجنّبه، في واقع الأمر، بعضَ النقودِ التي وُجّهت إليه بخصوص ترجمته، على نحو ما سنبيّنه في المبحث الآتي من تحليل.

(1) Mohammed Esseghir Ben EL Hadj Ben Abdallah Eloufrâni. Nuzhat al- hâdi. Traduction. P. IV.

4- من مآخذ التّرجمة:

تناول ترجمةَ أوكتاف هوداس لجملة من الأعمال الفكريّة البعضُ من المهتمّين، من العرب وغير العرب، بالترجمة والتحقيق. وبالرغم من أنّ هوداس كان قد استشعر بأنّ اقتحام ميدانِ الترجمةِ والتحقيقِ اللّغويِ يحتاج إلى جرأةٍ كبيرةٍ دون شكّ، ولا مناص له من التعرّض لأقلام النقّاد؛ لأنّه لم يكن يدّعي بأنّه قد أحاط بجميع ما تصدّى له في عمله، وقد اعترف بنفسه، في مقدّمة بعض الأعمال التي قام بترجمتها، بأنّه قد أضاف تقسيماتٍ منهجيّةً هي ليست من النصّ الأصلي، وأنّ عمله قد تسرّبت إليه، من حيث لم يشعر، بعضُ الأخطاءِ التي قام بالإشارة إليها، ونبّه القرّاء إلى ضرورة أخذها بعين الاعتبارِ قبل الشّروع في عمليّة قراءة العملِ المُترجَمِ، فهو، على سبيل المثال، قد ألمع، في مقدّمة ترجمته لكتاب تاريخ السودان، إلى أنّه قد أسقط عنوانَ البابِ الخامسِ والعشرين ولم يذكره، ونبّه كذلك إلى أنّه أحيانًا كان يذكر، عن غير قصدٍ، اسم "محمّد" بدلًا عن محمودٍ، وأنّ النصّ الأصلي لم يكن، في الواقع، مقسّمًا وفق فصولٍ، وإنّما هذا التقسيم من صنعه هو ذاته، وقد سعى، دون أن يغيّر من سياق النصّ شيئًا، إلى تفريعه حتى تتضّح الأفكار ويسهل النظر إلى الكتاب"[1]. نقُول، إذن، إنّ

(1) ينظر تفصيل ذلك في:

Tarikh Es- Soudan.Page. XVIII –XIX

وعي الكاتب بهذه النقائص لم يجعله، في واقع الأمر، بمنجى عن تشكيك بعض النقّاد الذين حاولوا فهم ترجماته وتقييمها تقييمًا بدا لنا صائبًا في بعض الأحيان، بالقدر نفسه الذي بدا لنا، في أحايين أخرى مُجانبًا للصّواب.

وإذا كان الباحثُ ميشال إيزارد (Michel Izard) لم يتوقّف كثيرًا عند هذه النقائص، فاكتفى بالإشارة، في دراسته التاريخية الأنثروبولوجية حول غرب إفريقيا في القرن السادس عشر الميلادي، إلى أنّ ترجمة أوكتاف هوداس لـ"تاريخ السودان" تبدو سطحيّةً ودون تحليلات مُعمّقة أو تعقيبات، لأنّها، في اعتقاده، **"خاليةٌ من أيّ اجتهادٍ أو حسٍّ نقديٍّ**[1]، فإنّ الكاتب والمستشرق الفرنسي "شارل مونتاي" (Charles Monteil)[2]، لم يطق صبرًا على هذه الترجمة، وفصّل القول فيها تفصيلًا واضحًا. ففي مقالته التي عنونها بـ**"ملاحظات حول تاريخ السودان"**[3]، والتي وثّقها

(1) Michel Izard: MOOGO. P.36

(2) مُستشرق فرنسي، وُلد في 22 أفريل 1871م بباريس، وتوفيّ في 20 أفريل 1949م بباريس أيضًا، له العديد من الكتب والمقالات في التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع. يُنظر تفصيل ذلك في:
Vincent Monteil: Charles Monteil (1871-1949). In: Hommes et Destins. Publications de l'Académie des sciences d'outre - Mer. Travaux et Mémoires. Paris. 1984. P.402-405.

(3) Notes sur le Tarikh es- Soudan.

ابنه "فنسان مونتاي" (Vincent Monteil)[1] ضِمن أحدِ منشورات **"المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء"**[2]، يُحصي شارل مونتاي، بشكلٍ متدرّجٍ وعلى مدى أكثر من خمسين صفحةً، عددًا من النقائص والهنات؛ سواء في التعبير أو في الخلْطِ وسوء الفهم الذي وقع فيه أوكتاف هوداس أثناء ترجمته لتاريخ السودان، والتي سنقتصر على ذكر بعضٍ منها[3] في هذا الكتاب.

يلوم مونتاي- وربّما له الحقّ في ذلك- أوكتاف هوداس لأنّه تغافل، في ترجمته لاسم صاحب كتاب تاريخ السودان، عن توثيق تاريخ مولده ووفاته، وكان يجدر به فعلَ ذلك على صفحة الغلاف[4]، وأنّه قد تطرّق، في المقدّمة، إلى كتاب "الخبر" مع أنّ

---

(1) مستشرق فرنسي ولد سنة 1913، وتوفيّ سنة 2005، له العديد من الإصدارات لعلّ أهمّها: العرب، فرنسا 1964، والإسلام الأسود، طبعة باريس، 1980.

(2) Bulletin de L'institut Français d'Afrique noire. Série B, Sciences Humaines. Tome XXVII. N 1-2. Janvier – Avril 1965. PP. 479 - 530.

(3) لا يمكن، بطبيعة الحال، ذكر هذه النقائص كلّها التي أوردها مونتاي في مقالته بسبب ضيق الحيّز المُخصّص لها، لكن نُحيل مَنْ أراد الاطّلاع عليها والاستزادة منها بالعودة إلى:
Ch. Monteil: Notes sur le Tarikh es- Soudan. Bulletin de L'institut Français d'Afrique noire. Série B, Sciences Humaines. Tome XXVII. N 1-2. Janvier – Avril 1965. PP. 479 - 530.

(4) Ibid. P.482.

السّعدي لم يتحدّث عن هذا الكتاب إطلاقًا، فهي إذن زيادة ناتجة، في تصوّر مونتاي، عن خطإ هوداس في الترجمة[1].

ويمضي مونتاي، بعد ذلك، في تعداد هذه النقائص، فيُشير إلى أنّ هوداس قد أخطأ، أيضًا، في ترجمة جمع اسم "عكري" (Ouakorey)، كما نجده في الباب الرابع من النسخة العربية، فترجمها oua'kori[2]، والحال أنّه كان ينبغي له ترجمة هذا الجمع بـ Ouakoréiouna[3]. ويواصل الباحث في سرد بعض الأخطاء التي وقع فيها هوداس أثناء ترجمته لتاريخ السودان، ويذكر، هذه المرّة، خطًا تاريخيًّا- جغرافيًّا ذكره هوداس في ترجمته: ففي إشارة إلى توقيت الفيضان الكبير الذي كان يحلّ بمناطق الجنوب الغربي لمدينة تمبكتو سنويًّا، يذكر هوداس أنّ هذا الفيضان يكون، عادةً، في شهر أغسطس من كلّ سنة[4]، ولكنّ مونتاي يعتبر أنّ هذه المعلومات الجغرا- تاريخية غير دقيقةٍ، ويصحّحها ويقرّر أنّ هذا الفيضان يحدث، عادةً، في شهر سبتمبر من كلّ سنةٍ وليس في شهر أغسطس ، على نحو ما ألمح إلى ذلك هوداس[5].

ويواصل مونتاي في نقد عمل هوداس، وذلك باستخراج

(1) Ch. Monteil. Notes sur le Tarikh es- Soudan. P.482.
(2) O. Houdas:Tarikh Es- Soudan. P.18.
(3) O. Houdas.Ibid. P.485.
(4) Ch. Monteil. P.23.
(5) Ch. Monteil. P.488.

بعض الأخطاء التاريخية التي وقع فيها أثناء ترجمته، ويذكر أنّ صاحبَ الترجمة كان يخلط في إيراد بعض التواريخ، لاسيما تاريخ تولي الشيخ **"سنّي علي"**[1] حكم تمبكتو، فتارة يذكر أنّه قد بدأ حكمه في الفترة الممتدّة بين (1468م- 1469م)[2]، وفي أخرى يُشير إلى أنّه قد بدأ هذا الحكم في فترة (1464م- 1465م)[3]، وقد سعى مونتاي إلى تصحيح هذا الخطأ، واعتبر الفترة التاريخية الثانية هي الأصوب والأدقّ[4].

وفي السياق نفسه يُمكن أن ننزّل كتاب "محاولة حول تاريخ الطوارق" للمؤلّف جاك هيريكي[5]، الذي سعى إلى نقد كتاب "تاريخ السودان" وترجمة هوداس في الوقت نفسه، وإن لم يخلُ هذا النقد، فيما نرى، من مبالغةٍ.

اعتبر صاحبُ الكتابِ أنّ السّعدي تقصّد، في كتابه "تاريخ

---

(1) وكان يُلقّب في الأصل بـ"علي كولن"، ولكنّه عندما انتزع حريّة "سنغاي" من النفوذ المالي اتّخذ لنفسه لقب "سني" بمعنى "المُحرّر"، وهو الخامس عشر في سلسلة ملوك عائلة سني التي هي فرع من عائلة ضياء الأمازيغيّة الطرابليسية. ينظر:
- جميلة إمحمد التكيتك، المرجع نفسه، ص، 42-43

(2) O.Houdas. Tarikh Es- Soudan P. 38.

(3) O. Houdas. P. 104.

(4) Ch. Monteil. P. 491.

(5) Jaques Hureiki. Essai sur Les origines des Touaregs. Préface d'André Bourgeot. Edition Karthala. Paris. 2003.

السودان"، إلى كتابة **"توارق"** بدل **"الطوارق"**، وكان الأجدر به كتابتها بحرف **"الطاء"** المفُخّمة لا بحرف **"التاء"** المرقّقة، ولكنّ السعدي سعى، بحسب المؤلّف، إلى فعل ذلك عمدًا ليسخر من "الطوارق" ويُقلّل من حجمهم[1]. ليمرّ، بعدئذ، إلى نقد ترجمة هوداس لهذا الكتاب، حيث اعتبر أنّ ترجمة هوداس لـ"تاريخ السودان" ناقصة، وهو السبب الذي جعله لا يعوّل عليها كثيرًا في أطروحته، وأنّ من بين الأخطاء التي وقع فيهـــا هوداس أنّه كان يُترجم جمع "الطوارق" بـ (Touareg) وكـان الأجـــدر بـه أن يُضيف الحرف(**s**) فتصبح (Touaregs) حتى يُجنّب القارئ الخلط بين الكلمتيْن"[2].

أمّا الباحث الجزائري "مبارك جعفري"، فقد أشار بالبنان، هو الآخر، إلى بعض من هذه النقائص التي شابت ترجمة هوداس لبعض المخطوطات. ولم يخفِ الباحث الجزائري بعض هذه الانتقادات في كتابه الصادر حديثًا، والذي يحمل عنوان "مقالات وأبحاث في تاريخ الجزائر". ورغم إعجابه الواضح بمنهج هوداس وبفضله في تحقيق العديد من المخطوطات، إلاّ أنه كان "يعيب" عليه عدم إبداء رأيه في هذه المخطوطات، كما أنّه

---

(1) ينظر كتابه:

Jaques Hureiki. Essai sur Les origines des Touaregs. P.348.

(2) Jaques Hureiki. Ibid. P.348.

"يعيب" عليه قلّة اعتنائه بتصحيح بعض المفردات والمصطلحات، وعدم التعريف بالأماكن والأسماء التي تغصّ بها هاته المخطوطات، والتي تُعتبر مجهولةً عند السّواد الأعظم من المُتلقّين، يقول:

"رغم أهميّة المنهج العلمي والأكاديمي المُتّبع من لدن هوداس إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من وجود نقائص منهجيّة وقع فيها؛ منها أنّه لم يُشر إلى النسخ المعتمدة في التحقيق وأماكن وجودها، ولم يُعرّف بالمؤلّفين ولا بالفترة التي عاصروها، ولم يقم بالدراسة الوصفية الخارجية لهاته المخطوطات؛ كنوعِ الخطِّ، وعدد الأسطر والصفحات، كما أنّه اعتمد التهميش بالفرنسية والحال أنّ النصّ باللغة العربية، ولم يقم بإعراب بعض المفردات التي كانت بحاجة إلى إعرابٍ..."[1].

ولا شكّ في أنّ هذه النّقود التي وجّهها الباحث الجزائري مهمّة في هذا السياق لكنّها تبقى، للأسف، مجرّد آراء نظريّة تفتقر للحجج والبراهين اللاّزمة في هذا الإطار، والتي من شأنها أن تُدعّم ما ذهب إليه وتُفيد وجاهته.

وجديرٌ بالتذكير أنّنا كنّا قد أشرنا، أعلاه، إلى أنّ عبد اللطيف الشادلي، مُحقّقَ كتابِ نزهة الحادي، في طبعته الحديثة الصادرة

(1) مبارك جعفري، مقالات وأبحاث في تاريخ الجزائر، دار الكتاب العربي، ط،1، الجزائر، 2018، ص، 71- 72 (بتصرف).

بمطبعة الصباح الجديدة بالدار البيضاء سنة 1998م، قد ألمع إلى بعض النقائص في ترجمة هوداس لهذا الكتاب، وههنا نعود إليها بشيء من التفصيل. فبالرغم من أنّ الباحث لم يُنكر كون هوداس قد أحرز قصبَ السّبقِ في إصدار أوّل طبعةٍ فرنسية لكتاب "نزهة الحادي"، وعليها توالت الطبعاتُ الخاصّةُ بهذا الكتاب[1]، إلاّ أنّه لم يفته، في المقابل، إلى أن يُشير بالبنان إلى بعض النقائص في عمل هوداس السّابق الذكر، ويقول مُقرّرًا بأنّ هذا المستشرق الفرنسي قد "أخطأ" في تقدير منهج الإفراني في التأليف الذي اعتبره منهجًا مضطربًا متداخلًا بشكلٍ ظاهرٍ، لأنّ الإفراني لم يكن، وفق رأي الباحث المغربي، "يدّخر وسعًا في ترتيب مؤلّفه وفق تصميمٍ واضح المعالمِ. فقد حدّد إطاره الزمني، واتّخذ بطائق خصّص كلّ واحدة منها لفصلٍ من فصوله عمله. وكانت لديه منذ البداية نظرة واضحة لمشروعه؛ فهو – عندما يُشير إلى بعض الأحداث باقتضاب – يُنبّه القارئ إلى أنّه سيعود إليها في مكان أليق بها"[2].

على أنّ جملة هذه النقائص التي تميّزت بها بعضُ ترجمات هوداس، والتي أصاب في إبرازها بعض النقّاد- كما بالغوا أيضًا

(1) عبد اللطيف الشادلي (تحقيق): محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة الصباح الجديدة بالدار البيضاء، 1998، ص، 18.

(2) عبد اللطيف الشّادلي، المرجع نفسه، مقدّمة التحقيق، ص، 17.

في بعضها الآخر- لا تمنعنا من الاعتراف بأنّ هذه الهفوات التي وقع فيها، إن صحّ اعتبارها كذلك، يجب أن تؤخذ على محملٍ حسنٍ، بعيدٍ البعد كلّه عن الحقد والدسّ والافتراء، وبأنّ حسنَ النيّة كان متوفّرًا عنده ولا شكّ فيه، كما أنّها لا تمنعنا من الاعتراف بالأعمال الجليلة التي قدّمها هذا المستشرق للتراث العربي، لاسيما ذاك المنسيّ منه من تاريخ السودان الذي قام بتقديمه لبني قومه، ليُبدّد أوهامهم الموروثة حوله. ولهذا طالما كان البعضُ من النقّاد يُردّد بأنّ هوداس هو، بالفعل، "أوّل من مهّد الطريق لظهور الدراسات التاريخية حول السودان"[1].

(1) Louise Delafosse: Maurice Delafosse. P. 293.

الفصلُ الثالثُ
مُختاراتٌ من كتاباته الفكرية والإبداعيّة

1- الإسلامُ:

يبدو من المُفيد أن نستعيد، ههنا، بعضَ مواقفِ هوداس تُجاه الإسلام والمُسلمين، نظرًا إلى قيمة هذه الآراء التي كان فيها قلبُ الكاتبِ يميل إلى المُسلمين. فلم تكن كتاباتُه ضررًا على هذا الدين أو تجنّيًا عليه، ولم يُخوّف الغرْبَ منه، بل أبرز مشاعره الإيجابيّة تُجاهه. ولهذا جاءت آراؤه خاضعةً لصفة التجرّد، وبعيدةً عن الهوى والتضليل، يقول:

"يُفيدُ الأصلُ الاشتقاقيُّ للكلمة العربية **"أسلم"** معنى التخلّي عن شيء ما لشخص آخر. وقد يحمل، أيضًا، معنى العدول عن القيام بفعلٍ ما وتركه. ومن الواضح أنّ استخدام هذه اللفظة كان بغاية الاعتراف بالدين الجديد والتعريف به، وأيضًا بغاية دعوة المسيحيّين والصابئين واليهود، الذين من الواجب عليهم، من الآن فصاعدًا وبموجب أحكام القرآن الكريم، ترْك معتقداتهم الدّينية التي تتنافى وهذه الأحكام، وذلك إذا كانوا يرغبون، حقًّا، في الاستفادة من جميع المزايا التي قدّمها الله لأتباع الدين الجديد.

ولكنّ هذا الدين الإسلامي، ورغم احتوائه على شروط أخلاقية خالصةٍ وجدّ مُقيّدةٍ، مثَلهُ في ذلك كمثلِ الديانات الأخرى جميعها، لا يفرض، في الواقع، على المؤمنينَ أيَّ التزامٍ يتعارض مع قوانين الطبيعة البشرية. فهو لا يحتوي على مِثْلِ هذه الميزات التي من شأنها التسبّب في إساءة فهم الإسلام أو انتهاك قواعده؛ وهو، مثلًا، لا يُجبر أحدًا من مُعتنقيه بأن يعتزل الآخرين ويعيش بعيدًا عنهم، فالتقوى والعبادة لا تستوجبان، أبدًا، اعتزالَ الناسِ ونبْذَ الآخر.

وثمّة خاصيّة أخرى جذّابة ومغرية في هذا الدين الإسلامي الجديد، وهي أنّه لا يتجاوز، إلاّ في القليل منه لا غير، حدودَ العقلِ. إنّه لا ينطوي إلاّ على حقيقةٍ واحدةٍ خالدةٍ فقط: هي حقيقة وجودِ الله الواحد الأحد الذي له القوّة المُطلقة، فإذا سلّمنا بهذه الحقيقة، فإنّ باقي الأمور سيسهل حلُّها دون الحاجةِ إلى تقديم افتراضات للاحتجاج بها.

أمّا "محمّدُ"، الذي كان يقوم بدورِ الوسيطِ بين اللهِ والعبادِ، والذي كان يسعى إلى نقْلِ كلامِ ربّه إلى الأرض، فإنّه قد وُلد مِثلَ الرجال الآخرين كلّهم، وعاش مثلهم، ومثلهم مات أيضًا. ولم يكن اتّصاله بالله اتّصالًا مباشرًا دائمًا، إنّما كان، أحيانًا، عبر وسيطٍ، هو الملائكة التي كانت توحي إليه من أمر ربّها. وإذا كان كُلٌّ من "موسى" و"عيسى" مجرّد شخصيّاتٍ دينيّةٍ لا غير، فإنّ "محمّدًا"

كان، إضافةً إلى ذلك، سيّدًا لقومه ورجلَ دولةٍ، وإلى ذلك فقد لعب دورًا سياسيًا بارزًا. لذا، فمن الواضح أنّ تاريخَه يبدو لنا معلومًا أكثر من تاريخ أسلافه من الأنبياء والرُّسُلِ الذين كان هو آخرهم، إذ نحن نملك معلوماتٍ دقيقةً عن حياته، وعن آرائه في المسائل الدينيّة والدنيويّة جميعها. وهي معلوماتٌ مُستمدّةٌ من مصادرَ دقيقة، ويصعب التشكيك فيها، أو القول بأنّها مجرّدَ خرافاتٍ وأساطير. وهذا ما يسمح لنا بتصديق مشاعرِ النبيّ وتأويلاته الصّادقة التي ظهرت، لاحقًا، في جملةِ التفاسير التي ألّفها المسلمون"[1]

2ـ الحرب الإسلامية المقدّسة (الجهاد):

لا يستطيع أن يذكر هوداس، في مقالته التي نشرها في مجلّة **"علوم سياسيّة"**[2] جميع الأفكار والآراء والتصوّرات التي تحوم حول موضوع شائق ومهمّ مثل "الجهاد". والواقع إنّ مثل هذا العمل لوكان قد قرّر القيام به، سيتطلّب منه وقتًا طويلا وصفحات مطوّلة. ومع ذلك، فإنّ "الجهاد" كان من أحد أبرز الموضوعات التي شغلت بال هوداس. وأكبرُ دليلٍ على أهميّة هذا الموضوع هو

(1) O. Houdas. L'islamisme.PP.1- 17.

(2) O. Houdas, La Guerre Saint Islamique, in, Revue des Sciences Politiques. Publiée avec la collaboration des professeurs et des anciens élèves de l'école libre des sciences politiques, Librairie Félix Algan, Paris, Tome XXXIII- II. Avril, 1915, P.P.87- 95.

أنّ أوكتاف قد توقّف قليلا عنده وكرّس له مقالةً كاملة، على نحو ما ذكرنا أعلاه، وهي مقالة تحمل عنوان **"الحرب الإسلامية المقدّسة"**. وهذا يُثبت مدى رواج هذا الموضوع وحضوره المُهيمن في تلك الفترة الزمنيّة بالذات. وههنا نورد بعض ما جاء على لسان صاحبِ المقالةِ من آراء، يقول:

"للاصطلاح على ما نسميّه نحن اليوم "الحرب المقدّسة"، يستعملُ العربُ مُصطلح "جهاد" الذي يحمل عندهم معنى القتال بحماسةٍ لضمان انتصار دينهم الجديد (...) وقبل الانتقال إلى العرض السّريع لقواعد "الجهاد" ومراحل التطوّر التاريخي لهذه "المؤسّسة"، من المهمّ أن نتذكّر، بداية، كيف تمّ وضع القوانين التي كانت تحكم المجتمع الإسلاميّ في بدايات الإسلام خاصّة، والإشارة إلى سبب عدم وجود تلك الصّلابة التي من المُفترض توفّرها في مثل هذه المؤسّسة. إنّ الاعتقاد الأوّلي، الخاطئ ربّما، الذي من شأنه أن يجعلنا نطلق أحكامًا غير صحيحةٍ تُجاه التشريع الإسلامي، يتمثّل في الرغبة في بناءِ إسلامٍ جديد كليّا؛ إسلامٍ غير ذي صلة بماضي العرب السّحيق؛ إنّ هذه القوانين الحاليّة التي تحكم الشعوب المسلمة، والأمر نفسه ينطبق على الشعوب الأخرى بطبيعة الحال، ما هي إلاّ امتداد طبيعيّ لأحكام وأعراف سابقة وعادات قديمة. إنّها الأحكام والعادات والأعراف نفسها التي أنتجتها البيئةُ الاجتماعيّةُ التي

سكن فيها العربُ من قَبْلِ محمّد (ص)، والتي بعد أن تبدّلت وتكيّفت مع الظروف المُحيطة بها خضعت أخيرًا لتأثير الدين الإسلامي الجديد، وإن كان ذلك بشكلٍ محدودٍ في أحايين كثيرة.

وإذا لم تكن هذه الفكرة شائعةً ومنتشرةً على نطاق واسع، فذلك راجع بالأساس إلى أنّ الكثير من تلك العادات والتقاليد الما "قبل إسلامية" لم يتمّ بالكتابة تثبيته وحفظه أبدًا. ولهذا، سنظلّ على بيّنة فقط بالقليل من هذه الحقائق التي نجد صداها في شروح بعض القصائد العربية القديمة، وأخرى لا تقلّ عنها أهميّة منثورة في ثنايا القرآن الكريم والسنّة النبويّة من بعده. وممّا يزيد الطيّن بلّة، أنّ الكُتّاب العرب لم يُفكّروا، بعد ذلك في إعطائنا صورةً شاملةً عن هذه العادات أو على الأقلّ لائحة في أهمّها، وذلك حتى لا يسمح هذا الأمرُ للمؤمنين أن يعتقدوا أنّ القرآن لم يأت للقطع، كلّيا، مع هذه المُمارسات الجاهليّة، وإنّما فقط لتقويم بعضها، أو إصلاحه وجعله مُستجيبا للشروط التي سنّها وفرضها الدينُ الجديدُ. بيْد أنّ ذلك لا يمنعنا من الإقرار بأنّه ليس من الصعب العثور على بعض الأدلّة التي تؤكّد ميْل محمد (ص)، الدائم وقدر الإمْكان، إلى الحفاظ على البعض من تلك التقاليد المنتشرة في شبه الجزيرة العربية القديمة؛ فهل نحن بحاجة إلى القول إنّ مراسم الحجّ إلى مكّة كثيرا ما كانت تُشبه إلى حدّ بعيد

تلك المراسم التي كانت تُقام في زمن الوثنية؟ والحجُّ، كما هو معلوم، هو أحد القواعد الأساسيّة الخمس للإسلام.

عندما ينظر المرءُ نظرةً فاحصةً إلى مفهوم "الجهاد" في سياقه الحالي، سُرعان ما يُدرك بيُسرٍ ربّما أنّه كان يخضع لجملةٍ من القواعد ليست سوى تلك القواعد نفسها التي كانت خاصّة بالمجتمع العربي قبل الإسلام. لا شكّ في أنّ الدين الإسلامي قد أعطاها أبعادًا جديدةً، هذا مؤكّد، لكن يبدو أنّ القواعد الحالية للجهاد لا تختلف في جوهرها عن حقّ الشعوب القديمة في إقامة الحروب، لا سيما في الماضي عندما شُنّت هذه الحروب ضد الشعوب الأجنبيّة التي كانت تُهدّد استقلال العرب وسلامتهم. فهي، أيضا، كانت تحمل، بمعنى ما، طابع الدفاع الوطني.

بلا شكّ، لقد تصوّر محمّد (ص)، لا سيما في بداية دعوته، أنّه بإمكانه أن يبلّغ رسالته مستندا إلى بلاغة الخطاب القرآني الذي كان هو وحده المسؤول عن نقله إلى صدور الرجال وعقولهم. لكن وفي واقع الأمر سرعان ما أدرك النبيّ أنّ هذا القرآن ما عاد بإمكانه أن يُحقّق وحده هذه الغاية العزيزة. ولهذا لم يجد محمّد بدّا من استخدام القوّة التي كانت أمرا حتميّا في هذا السّياق من أجل ردع بعض الناس، ووضع حدّ للفوضى التي كانت ستُدمّر البلاد والعباد. وذلك كلّه من أجل إعادة إقامة وتأسيس روابط

مُشتركة بين العرب جميعهم، وهي روابط يُمكن أن نصطلح عليها، اليوم، بمفهوم الوطنيّة.

لقد ظلّت فكرة "الوطن" مشوّشةً إلى حدّ ما عند العرب، وذلك راجع للظروف الخاصة التي كانوا يعيشون فيها. فمن ناحية، تحول المناطقُ الشاسعة وشبه الصحراوية دون إقامة علاقات تجاريّة نشيطة وسهلة بين القبائل المختلفة، ومن ناحية أخرى، فإنّ تقسيم السّكان إلى مجموعتيْن رئيسيتيْن: بدويّة مُرتحلة وأخرى ثابتة مستقرة، قد أدّى دون شكّ إلى خلق مصالح اقتصادية مُتضاربة بينهما، وساهم بشكل كبير في خلق تنافسٍ حادّ بينهما أكثر، عوضًا عن أن يضمن بينهما الاتّحاد. ولهذا جاء هذا الدينُ الجديد، وقد تمثّل هدفه في السّعي أوّلا إلى توحيد هذه القبائل المُتبعثرة وتجميعها وتوحيد صفوفها، على الرغم من ظهور العديد من العقبات والمُعارضات التي كانت مُثيرة للاهتمام.

لقد أدرك السياسيّون الذين احتفظوا بالسّلطة في مكّة أنّ المجتمع الدّيني الذي أراد محمّد (ص) أن يُشيد أركانه من جديد سيتجاوز سلطتهم، ثم، بعد ذلك، سينقلب عليها ويُنهيها إلى أبدِ الآبدين. لقد شعروا جيدًا أنّ القوة الدينية لمحمد (ص) ستؤمّن له، عاجلًا أم آجلًا، القوة الماديّة، وأنّه سيكون عندئذ من الوهم

محاولة تقسيم السلطة تقسيمًا لا يمكن أن يستمرّ إلى ما لا نهاية. لذلك فإنّهم لم يتردّدوا في محاربة هذا المُخلّص الذي كان لا يزال ضعيف السلطة وقتذاك، قبل أن يُقرّروا التخلّص منه عن طريق اغتياله لاحقًا[...] وعندما فرّ محمّد (ص) إلى المدينة خوفًا من القتل، وجد، هناك، الدّعم المادي كلّه الذي كان يحتاجه. وبعد أن أصبح قائدا حقيقيّا، قرّر أن يبدأ الجهاد المسلّح ضدّ أهل مكّة.

في البداية، لم يتّخذ هذا الصراعُ الملامحَ نفسها التي كان سيظهر عليها لاحقًا، لأنّه كان يهدف فقط إلى الدّفاع عن الدين الجديد الذي يواجه تهديدات جمّة، هذا واضح، لكن الهدف الآخر الذي كان هذا الصراعُ يسعى جاهدًا إلى تحقيقه هو، دون شكّ، ضمان سلامة المؤمنين وسلامة النبّي محمد (ص) نفسه. ولهذا كان من الضروري تحفيز المؤمنين، وهم أقلّ من أعدائهم عددًا، وإلهاب حماسهم، وإشفاء صدورهم وإقناعهم بضرورة مُحاربة الكثير من أقاربهم وأصدقائهم الذين آثروا الإبقاء على ممارسة عبادة الأوثان. ولقد ساهم القرآنُ في تكريس شعورهم هذا، حينما قرّر أنّ الكفاح من أجل الانتصار في هذه الحرب هو طريق رئيسة مؤدّية، لا محالة، إلى حيازة مرضاة الله، الذي سيضمن لهم، ولكلّ أولئك الذين قُتلوا في هذه المعارك، مكافأةً خاصّة وجدُّ عزيزةٍ. إنّ هذا النوع من الكفاح هو الذي أخذ بعد ذلك اسم "الجهاد" تمييزا له عن غيره من الحروب العادية(...).

ويكفي أن نلقي نظرةً سابرةً على بعض الآيات المذكورة في القرآن لنفهم أنّ غاية الجهاد كانت تتمثّل بالأساس في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الناشئ، أي ذاك المجتمع العظيم الذي سوف يتحوّل لاحقًا وفي الوقت الذي لم يعد ثمّة خطر يُهدّد سلامته، إلى عدد من الأقليّات القومية المختلفة ولكن ذات التشريعات الدينيّة المتطابقة تقريبا. فلم تكن إذن غايةُ الجهاد إلاّ الدعاية الدينيّة أو الدفاع عن تعاليم هذا الدين كلّما تعرّض للخطر من قبل المسلمين أو غير المسلمين.

إنّنا نعلم أنّ الدين الإسلامي كان يفرض على أتباعه الالتزام بقواعد أساسيّة خمسة وهي: الإيمان بالله الواحد الأحد، والصلاة، والزكاة، ثم صوم رمضان، وأخيرا الحجّ إلى مكة المكرّمة لمن استطاع إليه سبيلا (...). واضحٌ، إذن، أنّ الجهاد لم يكن من ضمن هذه القواعد الخمسة للإسلام، ومع ذلك، فإنّ كلّ المسلمين كانوا مُلزمين بالمشاركة فيه، لاسيما إذا كان يهدف إلى تحقيق غايةٍ دفاعيّةٍ بالأساس. والمسلمون المعنيّون بالجهاد، ههنا، هم أولئك القادرون على حمل السّلاح بدرجة أولى. أمّا عندما يكون عدد المقاتلين الذين ينوون غزوَ أرض العدوّ كافيًا، فيحقّ للمُسلم الامتناع وقتذاك عن المشاركة في هذا الجهاد(...).

ليست قواعد "الجهاد" سوى تلك القوانين التي تُنظّم

المسلمين. وفي حالة وقوع هجوم، يجب أولًا استدعاء جماعة من العدوّ لمدّة أيّام ثلاثةٍ لعقد مشاورات تهدف إلى إخماد نارِ الحربِ بين الطرفيْن وإطفاء فتيلها وحثّ العدوّ للتخلّي عن ممارساته المخالفة لقانون الدين الجديد. أمّا إذا استعرّ لهيب الحرب واضطرم وتوقّد، فإنّه يُمنع منعًا كلّيا التنكيل بالعدوّ، كما يُمنع استخدام أنواع الأسلحة السّامة جميعها، إلى غيره من الممارسات المنبوذة التي كان الجهادُ ينهى عنها نهيًا قاطعًا؛ كحرْقِ المنازل وتدمير الأشجار والحصائد المتنوّعة، وقتل الأطفال والنساء وكبار السنّ وحتّى رجال الدين. وأمّا المهزومون في الحرب، فإنّ مصيرهم لم يتمّ تحديده بطريقةٍ واضحةٍ من قبل الطرف الآخر المنتصر في هذه الحرب، إذ إنّ المنتصرين كثيرا ما كانوا يختلفون في تحديد نوعيّة هذا المصير. ثمّة أيضا اختلاف فيما يتعلّق بمصير الأراضي التي تمّ السّطو عليها واعتبارها غنيمةً من غنائم الحرب. وسببُ هذا الاختلاف راجعٌ بالأساس إلى طريقة السطّو على هذه الأراضي، وإلى ما إذا كان ذلك قد تمّ افتكاكًا بالقوّة أمّ عبر استسلام العدوّ استسلامًا طوعيًّا، وفي هذه الحالة الأخيرة كثيرا ما تتمّ مراجعة طريقة أخذ هذه الغنائم، واحترام بنود الحرب وشرائط الاستسلام فيها.

من الواضح إذن أنّ الجهاد، الذي كان يهدف إلى تغيير ديانة

المشركين، كان يستمدّ طابعه الدينيّ من رئيس السلطة الروحية، لكن من ناحية أخرى، فإنّ مهمّة قيادة هذه حرب المقدّسة لا يمكن أن تقع على عاتق هذه السلطة وحدها. وفي عهد محمد (ص) وخلفائه الأربعة الأوائل، اللذان شكّلا معا يدا واحدة، كان للخليفة وحده سلطة اتخّاذ قرار في هذا الصدد. أمّا في عهد الأمويّين، ومِنْ بعدهم العباسيّين، فقد كانت الزعامة الروحية المُعترف بها بِيَدِ الملوك التابعين لهاتيْن العائلتيْن وحدهم. ومع ذلك، وفي حوالي القرن الثالث عشر تقريبا، فقد خسر تدريجيّا آخرُ العباسيّين سلطتهم الماديّة، ليُحافظوا على هامشٍ من تلك السلطة الدينيّة فقط، وذلك حتى بداية القرن الرابع عشر عندما انهارت هذه العائلات تمامًا (...)

اعتاد النبيُّ محمّد (ص)، في بواكير رسالته الدعائيّة خاصّة، أن يسأل، وربّما أن يتشاور أحيانا الكثير من المُسلمين لاسيما أولئك الذين كان يعتبرهم أكثر خبرةً وعلمًا من غيرهم، عن أدقّ المعلومات والتفاصيل في شؤون الدنيا والدين، وذلك بغضّ النظر عن طبيعة انتمائهم الدّيني. ولم يكن يجد في نفسه حرجًا في أخذ النصيحة من أصدقائه كلّهم، ودون استثناء. وبعد وفاته، اتّبع خليفته هذا التقليد السّائد، وجرى على مهيعه في مخاطبة المسلمين والأخذ برأيهم في شؤون الدنيا، لاسيما أولئك الذين

عرفوا محمّد حقّ معرفة أو أيضا أولئك الذين عاصروه وسمعوا عنه. ثمّ اتّسعت رقعة هذه المشاورات أكثر فأكثر لتشمل الشؤون الدينيّة جميعها، فقد اعتاد الخلفاءُ على طلب النصائح وإجراء المشاورات حول بعض المجالات الروحيّة للمسلمين الذين جعلوا من القرآن والتقاليد النبوية موضوعًا خاصًا لدراساتهم (...) هذه المُشاورات أخذت بعد ذلك اسم **"فتوى"**، وتمّت تسمية من يُقدّمها بـ**"المُفتي"**. ولقد كثر المُفتون في وقتٍ لاحقٍ، خاصّة عندما تشكّلت العديدُ من الجنسيّات المسلمة، وتنوّعت مشاربهم الثقافية والاجتماعية والسياسيّة، ممّا ساهم في اختلافهم حول العديد من المسائل أحيانا، فقد حدث أنّهم لم يكونوا على اتّفاق دائمٍ. (...).

وغنيّ عن البيان أنّ هذه السّلطة الدينية قد فقدت الكثير من روحها وحرارتها نتيجة تفكّك الخلافة الإسلاميّة وانحلالها، وتفتّت المجتمع المسلم نفسه إلى عدد من المجتمعات التي خلقت فيها الصّلاتُ العرقيّةُ والظروفُ الاقتصاديّةُ عقليّاتٍ مختلفةً. وهكذا، وحتى لو تركنا جانبًا التّأثير الناجم عن الانقسام الكبير الذي قسّم العرب إلى سنّة وشيعة، فقد أصبح من الصّعب للغاية، بله من المستحيل، المُشاركة في هذه الحرب المقدّسة سواء كانت موجّهةً ضد المسلمين أو غير المسلمين".

3- تاريخُ العلومِ: الكيمياءُ في العصور الوسطى[1]

"كانت الكيمياءُ - ولا زالت إلى اليوم- تقوم بدورٍ مهمٍّ في المشرق. وعلى الرغم من أنّ أهمّ المؤلّفات التي اعتنت بهذا النوع من العلوم قد ضاعت واختفت، إلاّ أنّه لازالت هناك العديد من الإفادات التي من شأنها أن تُذكّرنا بأعمال الكيميائيّين العرب. وهذا هو السبب الذي جعلني أُسلّط الضوء، في هذا الكتاب، على تاريخ الكيمياء عند العرب.

وفي هذا الإطار أودّ أن أقتبس، على وجه الخصوص، بعضَ المعلوماتِ المُقدّمة في هذا الغَرَضِ، والتي نجدها منثورةً في كتاباتٍ مهمّةٍ ككتاب "الفهرست" لابن النديم، وأيضًا عند ابن خلدون، وأخيرًا عند كلٍّ مِنْ ابن خلّكان، وحاجيّ خليفة. لكنّ المؤسّف هو أنّ كثيرًا من النّاس، لاسيما في بلدان المغرب وخارجها، يملكون بعض هذه المؤلّفات الخاصّة بعلم الكيمياء عند العرب، ولكنّهم يتعمّدون إخفاءها والتستّر عليها، فيرفضون حتى الحديث عنها، أو السّماح للآخرين بنسْخها والإفادة منها؛ لأنّهم يزعمون أنّهم، بفعلهم هذا، إنّما هم يحتفظون بسرٍّ كبيرٍ لا يجب ترْك الآخرِ يطّلع عليه.

---

(1) Octave Houdas: L'alchimie arabe، comprenant une introduction historique et les traités de Cratès, d'el-Habib, d'Ostanès et de Djâber. Tirés des manuscrits de Paris et de Leyde. Imprimerie Nationale. Paris. P. P.1-6.

وبالعوْدِ إلى المؤلّفين الذين سبقت الإشارة إليهم أعلاه، يتّضح لنا أوّل من ألّف في علم الكيمياء هو الخليفة الأموي "خالد بن يزيد بن معاوية" (ت، 708م)، الذي تتلْمذ ودرس الكيمياء على يد الراهب "ماريانوس"، وقد كان شخصيّةً تاريخيّةً فذّةً بحقٍّ، وتمّ تكليفه، فيما بعد، بترجمة النصوص اليونانيَّة في الكيمياء إلى اللغة العربيَّة، وبتأليف العديد من الأعمال الأخرى في هذا المجال.

ويُمكن أن نُعطي مثالًا آخر من هؤلاء المؤلّفين في علم الكيمياء، وهو "جابر بن حيّان الكوفي"[1]، المعروف باسم جابر اللاّتيني، الذي وُلد بمدينة "طوس"، وعاش في منتصف القرن الثامن للميلاد، وقيل في القرن التاسع للميلاد أيضًا.

وجديرٌ بالذكر أنّه قد تمتّ الإشارةُ إلى عناوينَ مختلفةٍ لأعمال جابر، ومُعظمها، عُنونَ بعناوين تحمل أرقامًا، وتُعبّر عن عدد الكتب التي جرى جمْعها في مجموعة معيّنةٍ، من نحو كتاب "السّبعون" أو "السّبعون رسالةً"، والذي يُشبه، بحسب ابن خلدون، مجموعةً من الألغاز (...) وسوف نجد، في وقتٍ لاحقٍ، المزيدَ من التسميات الخاصة بعددٍ من هذه المؤلّفات، والتي أشار إليها جابر نفسه، والتي، عثرنا عليها بعد ذلك في كتاب الفهرست. وعلى الرغم من ذلك كلّه، فإنّ المؤرّخين لم يوضّحوا

(1) عالم مسلم عربي، برع في علوم الكيمياء والفلك والهندسة والفلسفة والطب، ولد سنة 721م، وتوفي سنة 815 م.

لنا، بشكلٍ دقيقٍ، لا هذه النظريات الجديدة المبثوثة في ثنايا الكُـتب، ولا حتى تلك الحقائق التي اكتشفها جابر الكوفي نفسه في أعماله، التي سنعود إليها لاحقًا بشيء من التفصيل في هذا الكتاب. ومهما يكن، فمن الواضح أنّ جابرًا قد تميّز بالرّيادة على غيره من الكيميائيّين العرب في هذا المجال، وباعتراف هؤلاء أنفسهم.

بعد جابر، يمكننا أن نضع ضمن هذا التصنيف "ذو النون المصري"[1]، ويأتي بعده "مسلمة بن أحمد المجريطي"، وهو فلكيٌّ وكيميائيٌّ عربيٌّ عاش في الأندلس، وتوفّي سنة 1007م، وكان من أحد تلامذته "أبو بكر بن بشرون"، الذي عاش في بدايات القرن 11م، ثمّ يأتي بعدهم الطبيب المشهور "أبو بكر محمد بن زكريا الرّازي"، الذي تُرجمت العديد من أعماله إلى اللغة اللاتينية.

ويأتي، في كتاب الفهرست، بعد هؤلاء عالمُ السّحرِ والكيمياءِ "ابن وحشيّة النّبطي" (القرن الثالث الهجري)، والإخميمي المصري، وإسحاق بن نُصير (...) وسنعثر، لاحقًا، على مجموعة أخرى من علماء الكيمياء الذين يذكرهم ابن خلدون في كتاباته

(1) وكنيته "أبو الفيض" ولقبه "ذو النون"، أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، ومن المحدثين الفقهاء. ولد في أخميم في مصر سنة179هـ الموافق 796م، وتوفي سنة 245هـ الموافق 859م. ومن أبرز مؤلّفاته: حلّ الرموز وبرء الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام.

على غرار: الطغراني، الذي توفّي سنة 1122م، وأبي عبدالله محمد، وابن أميل التميمي (12م) (...) وأيضًا العديد من شعراء الكيمياء: كأبي حامد الغزالي (ت 1111م) وابن المُغربي (ت 1286م)، وأبي نصر الفارابي (ت 950م)، وأخير العالم والطبيب المشهور ابن سينا (ق، 12م).

هذا هو تاريخُ الكيمياء عند العرب – أو إنْ شئتَ فقُلْ: هذا هو تاريخ الكيميائيّين العرب ذاتهم– إلى غاية اندلاع الحروب الصليبية. وجديرٌ بالذكر أنّه قد تمّت ترجمة العديد من أعمالهم هذه، التي لم يذكرها المؤرّخون العرب في كتاباتهم، إلى اللغة اللاّتينية في العصر الوسيط، وهي ترجمات تحمل عناوين المصنّفات نفسها وأسماء المؤلّفين ذاتهم. وهنا ينبغي لي أن أكرّر أنّ العديد من الكيميائيّين العرب قد تُرجمت أعمالهم إلى اللاّتينيّة، في القرن 12 و13م خاصّة، وهذه الترجمات متوفّرة ضمن مخطوطات محفوظةٍ في أكبر مكتبات أوروبا، ومن هذه المخطوطات ما تمّ طَبعه.

هذه الترجمات اللاّتينية، للمصّنفات المخطوطة والمطبوعة، تُعتبر وثائقَ مفيدة للغاية إذن. وإلى ذلك، هي مُساعدة على توضيح بعض الإشكاليات العسيرة والمرتبطة بتلك الفترة العلمية المخصوصة، ولقد حرصتُ على شرحها بالتفصيل في هذا العمل. لكنّ دراستي النقدية هذه ليست، والحقّ يُقال، كافيةً على أهميّتها. ويبدو لي أنّه لا غنى عن العودة إلى المخطوطات العربية الأصلية

ومقارنتها بالنصوص اللاّتينية المُترجمة، فحتى الآن لم تتمّ، على حدّ علمي على الأقلّ، طباعةُ أيّةِ دراسةٍ في مجال الكيمياء باللغة العربية، بل لم تتمّ حتى ترجمتها إلى لغاتٍ أخرى حديثة غير اللاتينيّة، زدْ على ذلك أنّ بعض المؤلّفات الأصلية قد اختفت، وبعضها الآخر أُتلف، والقليل منها فقط ما يُمكن أن نعثر عليه في بعض مكتبات أوروبا؛ مكتبة لايدن ومكتبة باريس خاصّة.

ولذلك يبدو، وكان هذا واضحًا لنا منذ البداية، أنّ نشرَ أهمّ هذه الأعمال هو أمرٌ ضروري ولا غنى عنه في هذا المجال، حتّى، وأكرّر، نحصلَ على معايير أكثر دقّة وشموليّة في تاريخ علوم الكيمياء.

4- مُحاولةٌ في الخطّ المغربيّ:

لا شكّ في أنّ الخطّ العربي هو فنٌّ إبداعيٌّ بذاته له ممارساته، وله العديد من المبدعين والمُجدّدين فيه. وفي هذا الإطار تتنزّل محاولة أوكتاف هوداس في التأليف. فقد حاول هذا المُستشرق أن يُنقّر في تفاصيل هذا الفنّ البليغ، مُسلّطًا الضوءَ على تعدّد أنماطه الإبداعية وعلى قواعده، وأيضًا على الجهات التي انتشر فيها وظلّ مُتداولًا. وفي هذا الصدد يقول:

"إنّ قصدي من تحرير هذا الموجز القصير[1] هو البحث عن

(1) Essai sur l'écriture maghrébine. Nouveaux Mélanges orientaux. Congrès de Vienne. Septembre, 1886. =

أصل الخطّ العربي المُستعمل حاليًّا في جهات المغرب، وتتبّعُ نموّ الاختلافات الرئيسيّة التي تولّدت منه، وتصنيفها على شكلٍ مُحكمٍ.

وللقيام بتصنيف، لمُختلف الكتابة المغربيّة، يتحتّم علينا أن نُميّز بين الأشكال المُعتنى بها من الآثار المخطوطة، وبين ما كُتب على عجلٍ، لحاجي المُراسلة اليومي؛ وجَهْلِ الناس في هذا الاستعمال الأخير للكتابة، وعمله حسب هواه اتّحدا إلى حدّ إزالة حتى أدنى آثار اتّحادٍ شكليٍّ ولو ظاهريٍّ، وغالبًا ما يكادُ الشكلُ الأصليُّ للحروف يَبينُ، وتُلقى نقطُ الحروفِ صدفةً، حيثما حلّت، وقلّما تُحترم قواعد الإملاء، حتى لتحتّم قراءة هذه النصوص عمليّة استقراء حقيقيّة؛ ولولا صيغ التسليم، ذات المعنى اليُسر تبيّنه، التي تسمح بملاحظة الأشكال الخاصّة لما يستعمله المؤلّف من الحروف، لصعب تمامًا استقراء عددٍ عديدٍ من الوثائق؛ وإنّ أقصى ما يصل إليه، في بعض الحالات، الكُتّابُ الأهليّون، الأكثرُ براعةً؛ هو اكتشاف المعنى العام لهذه التحارير، ولكن قد لا يتمكّن أحدٌ منهم من تقديم قراءةٍ دقيقةٍ لكلّ كلمةٍ، ويجب القول إنّ عدمَ مبالاةِ من يكتبون هذه الرسائل يصل إلى حدّ أنّ الكثير

= وقد ترجم الباحث عبد المجيد التركي هذا المقال، الذي اعتمدنا عليه، ونشره في مجلة: حوليّات الجامعة التونسية، ع، 03، تونس، 1966، ص ص 175– 214.

منهم يصبحون غير قادرين على قراءة كتاباتهم الخاصّة، إذا مرّ بعض الوقت على تخطيطهم لها.

وحتّى لو تركنا جانبًا- إلى حين- هذه الأنواع من النصوص، فما زال تحقيقُ اختلافات الكتابة المغربية يُمثّل صعوبات كُبرى؛ فلم يُقدّم أحدٌ من المؤلّفين الذين عالجوا هذه القضيّة معلوماتٍ دقيقةً ومفصّلةً عن عدد اختلافات الكتابة المغربيّة، أو العلامات التي تطبع كُلَّ واحدة منها (...) وإذا بحثنا بإمعان أمكن أن نحصر في هذا العدد الاختلافات الرئيسيّة للكتابة المغربية، ويظهر أنّ الأسماء: **قيرواني- قرطبي- فاسي- تنبكتي**، معنيّة، تمامًا، للدلالة عنها، وبما أنّ العرفَ اللّغويَّ قد رضي، بعدُ، باستعمال تسمية: الأندلسي، وأنْ ليس لدينا إلاّ معلوماتٍ ضئيلةً عن تأثير تونبكتو الثقافي، أقترح التسميات التالية: **قيرواني- أندلسي- فاسي- سوداني.**

وخاصيّة المثال الذي سميّته: **قيروانيًّا** غلظة سطرٍ تذكّر قليلًا بغلظة النسخي؛ وتظهر الحروف القصيرة والقريبة بعضها من بعض على حظٍّ كبيرٍ من التّناسق أو تكاد؛ فليست لها ملامح الفاسي الشديدة التضادّ، ولا أشكال السّوداني الجلفة، فقد حافظت على نوعٍ من الصّلابة في السّياق، تدفع إلى الخلط بينها وبين الكوفي القبيح، وذلك خاصّة في النّسخ القديمة (...)؛ ثمّ إنّ النقط الموضوعة على كلّ الحروف النهائيّة تُمثّل بيانًا يمنع من الخلط بين القيرواني وبين الفاسي.

أمّا **الأندلسي**، فقد زال استعماله منذ أمدٍ طويل، وهو من بين أنواع المغربيّ كلّها، أسهلها في التعرّف؛ والسّطر العمودي هو عامة أدقّ من السطر الأفقي؛ وتتجمّع الأحرف القصيرة والمُستديرة على شكل جدّ كثيف، وتُكوّن مجموعًا يُذكّر شكله، من بعيد، خطّنا الفرنسي (...)، وتجمّع الكلمات هنا أكثر منه في القيرواني والفاسي، ولا تجد فيه لا بياض ولا تداخل الحروف بعضها في بعضٍ، حتّى ليغطّي الواحد قسمًا من الجزء المُلاصق له.

و**للفاسي** من الأناقة حظّ كبير أو يكاد، بفضل طول الأسطر العموديّة الذي كاد يبلغ حدّ الشططِ، والتباعد بين الأحرف التي تمتدّ أشكالها بنوعٍ من الوفرةِ، والأسطرِ التي اتّحد حجمُها ورقّ مظهرُها قليلًا، تندفع في كثيرٍ من الجرأة وتبدو، لأوّل نظرةٍ، على تناسقٍ كبيرٍ.

ويُعرّف **السوداني** شكله الجلفُ، في يسر؛ وأشكاله الحروف الثقيلة هي نهاية عدم التناسق؛ والأسطر كثيفةٌ أحيانًا، ودقيقةٌ أحيانًا أخرى؛ وترتفع الأسطرُ العموديّة إلى علوٍّ كبيرٍ لا تناسبَ بينه وبين غلظة الكتابةِ وشكل القفلاتِ، وانحدار الكتابةِ العامِّ قويُّ البروزِ، ويتّجه نحو الشّمال، ولولا هذا الانحدار، لكان المظهرُ العامُّ مظهرَ كوفيٍّ جلفٍ خَطّتهُ يدٌ غيرُ ثابتةٍ.

وكلّ هذه البيانات غامضة قليلًا، إلاّ أنّه من المُستحيل أن نُضفي عليها دقّةً أكبر، لأنّ أشكال حرف ما، ليست قطّ – كما

رأينا أعلاه- خاصّة بنوع أو بآخر من الكتابة؛ إلاّ أنّنا نصل بيُسْرٍ كبيرٍ إلى التمييز بين الأَندلسي وبين السوداني، وليس إلاّ بين القيرواني والفاسي أن نتردّد غالبًا في الحكم، ولكن تجبُ، فعلًا، المُلاحظة أنّ تسمية هذيْن الكتابتيْن لا تستلزم مطلقًا أنّهما خطّتا في هذه أو تلك، من المدينتيْن اللّتيْن تُدينان لهما بالتسمية.

وكلّ ما نشعر به من حرجٍ في تصنيف الكتابة المُهذّبة المُحكم، يكاد يستحيل التغلّب عليه، إذا دار الحديثُ حول الحروف التي خطّت بكلّ عجلةٍ، ورغم أنّ الاختلافيْن: التونسي والسّوداني هما أحسن تميّزًا، فما زال من المُستحيل أن نفرّق بينهما بأوجهٍ دقيقة.

وإنّ المثال التونسي ليتّخذ له، أكثر فأكثر، ملامح النسخي في تونس العاصمة، وفي شمال المملكة، وقد نظنّ غالبًا أنّ لنا نسخيًّا فاسدًا، لولا نقط: ف- ق؛ وتتكوّن الحروف من أسطر مليئة ومُكتنزة، تتتابع بانتظام دون أن تتجاوز الحدّ إلى الفراغ بين السّطرين؛ وإنّ ما كان من ثقل التأثير التركي الطويل المدى، قد أكسب شؤون تونس العاصمة دورًا أكثر شرقيّة، وحلَّت الكتابةُ النسخيّةُ محلّ الخطّ **القيرواني** في قسم كبير من أشكاله.

والكتابةُ الجزائريةُ بعيدةٌ عن التوحّد في كامل البلاد الجزائريّة، ومن وجهة النظر هذه، فقد خضعت "عمالة قسنطينة" للتأثير التونسي، مع الاحتفاظ في كتابتها بأكثر شبه بالقيرواني، وتقابل أسطرهُ الغليظة وأشكاله القصيرة خفّة كتابات غرب المغرب

وسرعاتها، وفي الجزائر العاصمة بالذات استعمل الخطّ **الأندلسي** أحيانًا كمثال لأهلها الذين انحدر الكثيرُ منهم من أصلٍ أندلسي؛ إلاّ أنّهم لم يقلّدوا **الأندلسي** تقليدًا أعمى، ولمثالهم الأكثر انتشارًا، حظّ وافر من حدّة الفاسي. وفي عمالة "وهران"، نشعر شعورًا أدقّ بجوار المغرب الأقصى؛ وليس من اليسير أن نقرّر إنْ كانت هذه الكتابةُ مغربيّةً أو وهرانيّةً (...)

وفي المغرب الأقصى بقي الخطُّ الفارسيُّ كما هو تقريبًا؛ ولقد فقد، فقط، قليلًا من أشكاله المُـتحرّرة، وكسب أكثر بساطة لمّا اقتبس من **الأندلسي** رتابة تناسق الحروف.

وقد احتفظت كتابةُ السّودان بالخطّ **السّوداني** بثقله وجلافته؛ وإذ كاد السودانيّون ينعزلون تمامًا عن المغرب لحاجز بلاد الطوارق، ذلك الشعب الذي احتفظ بكتابته القومية، – كما يعلم– فما غيّروا شيئًا في الخطوط الكبرى، من الكتابة العربيّة التي تبنّوها، بادئ ذي بدء.

وفي كامل جنوب المغرب، فللسكّان الذين تبدَّوْا تمامًا، كتابة أخذت في الحين نفسه من المثال السّوداني والأشكال المُستعملة في الجهة الشمالية من القارة الإفريقيّة التي يجاورونها؛ ومازال مظهرُ الصلابةِ في هذا الصّنف الثانوي من الاختلافات يُذكّر بالكوفي.

الفصل الرابع
مُختارات ممّـا كُتب عنه

نُثبّت في هذا الفصل الأخير بعض ما جاء من شهادات وآراء في حقّ أوكتاف هوداس. وهي شهاداتٌ وآراء لم يكن من السّهل العثور عليها، بسبب ندرتها أوّلًا، وأيضًا بسبب أنّها كانت متناثرة في كتابات متفرّقة، وليست مجتمعة في كتابٍ واحدٍ يُسهّل على الباحث الوصول إليها. على أنّ تلك الندرة التي تميّزت بها هذه الشهادات لم تكن لتمنعنا من التنقير حولها والاستشهاد بها، لإيماننا بأنّها من المُمكن أن تُساعدنا على اكتشاف شخصيّة هوداس الجادّة والطريفة في الآن نفسه.

1- رسالةُ عبد الفائق:

عثرنا، في هذا الصدد، على رسالة يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر، وتحديدًا يوم 6 جانفي 1894م. وهي رسالة بعث بها أستاذٌ شابٌّ يُسمّى عبد الفائق – هكذا دون أن يزوّدنا المرجعُ باسمه الكامل – ويُدرّس لغة السالونيك (Salonique)[1]،

(1) سالونيك، وبثيسالونيكي باليونانية. وهي مدينة يونانية تُعتبر مركزًا لبلدية المدينة الواقعة في شمال البلاد، كما أنّها تُعتبر عاصمةً لمنطقة إقليم =

إلى أوكتاف هوداس، وكان هذا نصّها:

"سيدي الكريم، لقد قرأت، في دائرة المعارف الكبرى، مقالًا لك بعنوان "القرآن". ولقد شعرت، آناء قراءتي لهذا المقال، بقناعةٍ كبرى، وسأقول بارتياح كبير، إزاء ما كتبته. إنّك واحد من القلائل، كي لا أقول الأوروبي الوحيد وغير المسلم، الذي عبّر بطريقة موضوعيّة عن فكرته حول قانون الدين الإسلامي الذي يحتوي على أخلاقيات وممارسات طاهرة. ولتسمح لي، من فضلك، أن أعبّر لك، كشابٍّ عربيّ مُسلمٍ، عن أعمق الإعجاب الذي أكنّه لشخصك الكريم"[1].

= مقدونيا الوسطى. تقع هذه المدينة على رأس خليج سالونيك الذي يُعتبر أحد تفرعات الخليج الثيرمي، كما أنها تبعد مسافة تقدّر بـــ 500كم عن أثينا، التي تعتبر عاصمةً للبلاد. وتُصنّف هذه المدينة على أنّها ثاني أكبر مدينة يونانية من ناحية عدد السكان، بالإضافة إلى ذلك فهذه المدينة تعتبر ثاني أكبر مركز اقتصادي، وصناعي، وتجاري، وسياسي في الدولة، كما أنها تعتبر مركزًا مهمًّا للمواصلات، وتحديدًا في منطقة جنوب شرق أوروبا، وتحتوي على مجموعة من الصروح التي تدلّ على تاريخها، وعلى الحضارات التي تعاقبت عليها مثل الحضارة البيزنطية، والعثمانية. ينظر تعريفها على الرابط التالي:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%8A%D9%83.

(1) انظر نصّ هذه الرسالة في:

Louise Delafosse. Ibid. p. 188.

هذه الرسالة تدعو، على قصرها، إلى الاستغراب فعلًا. فمُرسلها لا يعرف أوكتاف، بحسب ما تذكره المصادر[1]، ولم يلتقِ به يومًا، إنّما قرأ له مقالًا وأُعجب به، الأمر الذي دعاه إلى كتابة رسالةٍ ضمّن فيها آراءَه ومشاعره تجاه أوكتاف وإرسالها إليه. ولَعلَّ ما يزيد في أهميّة هذه الشهادة الموثّقة في سطور الرسالة أنّها صدرت من لدُن قارئٍ عربيٍّ خبيرٍ، متُضلّعٍ في علوم اللغة العربية وعلى دراية، تزيد أو تنقص، بالقرآن. وهذا ممّا يعطي شهادته قيمةً مضاعفةً، يُمكنها أن تُفيدنا في مسعانا طالما أنّها موضوعةٌ في طورٍ علميٍّ، ذلك أنّها شهادة لقدرة أوداس، لا فقط في علوم اللغة العربية "الدنيويّة"، بل أيضًا في العلوم الدينية المقدّسة، التي لم يكن من المُتاح لأيٍّ كانَ الاقتراب منها والتأليف فيها، لأنّ ذلك يتطلّب، دون شكّ، قدرًا عاليًا من الجودة والكفاءة.

2- شهادةُ لويز دولافوس:

نرى من المهمّ جدًا، في هذا الصدد، إبراز شهادة "لويز دولافوس" حول أوكتاف هوداس أيضًا، وذلك لسبب رئيس، وهو أنّ لويز هي ابنة "موريس دولافوس"، تلميذ أوكتاف وزوج ابنته "أَليس" في الآن ذاته. وهذا يعني أنّ "لويز"، هي حفيدة

(1) Louise Delafosse. Ibid. p. 188.

"الشيخ هوداس"، وهو جدّها من جهة أمّها، على نحو ما ألمعنا إلى ذلك في المقدّمة. ومن المنطقي، إذن، أن تكون هي أقرب الناس إليه، ولهذا يُقرّر الدّارس أنّ شهادتها تُعتبر دقيقةً ولا ريْبَ فيها، قالت لويز:

"كان الشيخُ هوداس إنسانًا حكيمًا وحازمًا، ذا فكرٍ منفتحٍ، يُحبّ الخير للجميع، ويحترم الآخرَ مهما كانت توجّهاته وأفكاره ومُعتقادته. ولقد انعكست هذه الصفاتُ في كتاباته كلّها. وعند وفاته، قال عنه أحدُ أصدقائه مُخاطبًا والدي – موريس– سنة 1917م: "لقد شرّفني هوداس بصداقته، لقد عرفته في سنة 1889م، ومنذ ذلك الوقت ظلّت علاقتُنا عاطفيّةً للغاية". وبعيدًا عن كون الشيخ هوداس رجلًا من رجالِ العلم المقيّدين في غُرفِ عملهم، كان له حبٌّ عميقٌ للطبيعة، للهواء الطلق، للحدائق الغنّاء، وللمناظر الطبيعية الجميلة. لقد كان يُسافر بشكلٍ دائمٍ، لاسيما في اتّجاه شمال أفريقيا، وأيضًا إلى إنجلترا التي زارها في سنة 1873م. كانت له معرفة بالكثير من الناس والأشياء، ولقد كان مهتمًّا بالتفاصيل كلّها، حتى تلك الدقيقة الخاصّة منها بالكيمياء العربية. وإلى ذلك فقد كان يتمتّع بقوةٍ ونشاطٍ مُذهلَيْن في عمله. ولم يمنعه مرضهُ، الذي داهمه في عمرِ السّبعين، من زيارة الجزائر، باستمرار ومرّتين في كلّ سنةٍ، لتفقّد مدراس الجزائر. ولم يُقدّم استقالته إلاّ عندما اندلعت الحربُ العالميّةُ الأولى، وقُبيل

وفاته بقليل، في سنة 1914 تحديدًا. أمّا مدرسةُ اللغات الشرقيّة فلم يتقاعد منها إلاّ عندما بلغ الخامسة والستّين من العمر. وبالرغم من هذه المشاغل كلّها، فإنّه كثيرًا ما كان يمضي بعض أوقاته معنا، أنا وبقيّة أحفاده الصغار، بجانب الوادي الذي يشقّ الحديقة، للتخلّص من أعباء عمله وضغوطاته اليوميّة"[1].

من شأن هذه الشهادة، إذن، أن تُنير لنا الوجهَ الآخر الخفيّ عن معظم الناس من شخصيّة هوداس الصّارمة. فهو قد امتلك موهبةً عاليةً بأكبر قدرٍ من التواضع الظاهر والرومانسيّة المرهفة، التي لطالما كانت تبحث عن الطمأنينة والسّندِ من مشاغل حياته اليوميّة التي تحاول زعزعةَ عواطفهِ، وهو الشيء الذي لا يتوفّر دومًا في سائر العلماء. وهذا المزيجُ من العبقريّة الصارمة والعاطفة الهيّاجة، ومن الإحساس والعقل، هو الذي جعل من هوداس قدوةً لكثيرٍ من المُعجبين.

3- شهادةُ موريس كودال:

موريس كودال (Maurice Caudel)[2] هو، أيضًا، واحدٌ من أبرز الأساتذة والمفكّرين الذي صاحبوا أوكتاف هوداس في بعض

(1) Louise Delafosse: Maurice Delafosse. PP. 189،294.

(2) أستاذ العلوم السياسيّة بالمدرسة الحرّة للعلوم السياسية بباريس، وُلد بمدينة لوري الفرنسية في 9 مارس 1871، وتوفّي سنة 1950.

فترات حياته، وعرفوه معرفةً جيّدةً. ولذلك، فمن البديهي أن تكون شهادته حول هوداس ذات قدرٍ عالٍ من الصّدقٍ، ويُمكن أن يُعوّل عليها في هذا السياق، لاسيما أنّ موريس لم يتحدَّث عن حياة هوداس العامّة أو الخاصّة التي تشمل عائلته، كما فعلت ذلـك لويز دولافوس من قبل، بقدر ما تحدَّث عن مؤهّلاته العلميّة الخاّصة، التي تبيَّن لنا ثقافته الواسعة، وحُسن اطّلاعه، ومدى إلمامه بالمناهج التعليمية أغلبها. وفي هذا الصدد يقول موريس[1]:

الْتَحَقَ أوكتاف هوداس كأستاذٍ بالمدرسة الحرّة للعلوم السياسيّة سنة 1892م، وظلَّ فيها إلى أنّ غيّبهُ الموتُ. وفي هذه المدرسة، كان هوداس يُقدّم دروسًا في اللغة العربية المنطوقة، وكان يقوم، أيضًا وبالتوازي مع ذلك، بتدريس القانون الإسلامي. وحين أنهكه المرضُ، وتقدّم به العمرُ أُجبر، سنة 1904م، على أن يتخلّى عن مهنة تدريس اللغة العربية، لكنّه ظل، في المقابل، وفيًّا لتدريس القانون الإسلامي إلى غاية اندلاع الحرب العالميّة. ولقد شجّعه في ذلك الحضورُ الجدّي والممتاز لطلبته الذين كانوا قد

(1) Maurice Caudel. Octave Houdas. Revue des sciences politiques. Publiée avec la collaboration des professeures et des anciens élèves de l'école libre des sciences politiques.
Trente- deuxième Année 1917. XXXVII- Janvier A Juin 1917. PP . 8- 12.

التحقوا به منذ دروسه الأولى، الأمر الذي جعله شديدَ التحمّسِ للعمل معهم، كما جعله يبذل قُصارىَ جهْدِهِ، رغم مقدار الألم الذي كان يشعر به في الكثير من الأحيان.

وفي الغالب، فإنّ هؤلاء الطلاّب هم من كانوا يختارون أخذ المعرفة من عند هوداس، ويرغبون في مواصلة التعلّم عنده، وقد جذبتهم في ذلك سمعَتُهُ أكثر من الدّرس ذاته الذي كان يُلقيه على مسامعهم، لذلك فإنّهم كانوا لا يتردّدون في الهرولة نحوه، لاكتشاف كلِّ معرفةٍ جديدةٍ يُمكن أن يُقدّمها لهم هذا الأستاذ الخبير. ولسوف يظلّ خريّجو المعاهد يتذّكرون، دائمًا، هذه الدروس المُمتعة والمُلهمة التي كانوا يقدّمها لهم جملةٌ من خيرة الأساتذة من نحو: سيلفستر، وويلهالم، وهوداس. وبالرغم من أنّ الموت قد غيّبهم، قبل الأوان ربّما، فـإنّ صورتَهم ستظـلُّ حاضرةً ههنا بيننا دائمًا.

كان السّيدُ هوداس يقوم بوظيفتيْن مختلفتيْن في الآن نفسه، وصعبتيْن للغاية. وفي درس اللغة العربية المنطوقة، كان عليه أن يساعد الطلبة، حتى أولئك المبتدئين منهم أحيانًا، في التعوّد على فهم مصطلحات هذه اللغة التي كانت منفّرةً بشكلٍ كافٍ لتثبيط عزائمهم، وثنْيهم عن محاولة فهمها؛ فلقد كانت اللغةُ العربية العاميّة في شمال إفريقيا لغةً صعبةً للغاية؛ قواعدها النحوية، البسيطة في الظاهر، تدلَّ على هذا النظام العلمي المنظّم والصّارم

الذي يتمّ ترتيبه على مستوى متماثل ومعقّدٍ لا نجدُ له، في لغاتنا الأوروبية، مثالًا. (...)

ينبغي، إذن، للإنسان أن يتّبع دروس السّيد هوداس لإدراك موهبة هذا الرجل التي لا تضاهى، والتي سهّلت عليه تجاوز هذه الصعوبات كلّها. ولقد ساعدته تجربته في التدريس، وقد امتدّت لنحو ثلاثين سنةً، على المعرفة المُطلقة بأغلب تراكيب اللغة العربيّة العاميّة.

كان منهجه في تدريسِ الطلبةِ فريدًا حقًّا؛ يتراوح، باستمرار، بين التعليم السّمعي والآخر البصري. وفي البداية، كانت دروس هوداس تقوم، كلّها، على الطابع الشّفوي، لكنّه، بالتوازي مع ذلك، كان يدوّن كلَّ كلمةٍ ينطق بها وكلَّ جملةٍ على "السبّورة"، حتى يتأكّد من أنّ المظهر السّمعي للكلمة قد تطابق، في ذهن المستمع المتلقّي لدروسه، مع المظهر الحرفي لها (...) وبهذه الطريقة الفريدة في التعليم، التي تعتمد على الصيغ والتراكيب الواضحة والقصيرة، عرف هوداس كيف يُبسّطُ العديدَ من الأساسيّات المليئة بالتعقيد، فنجح، بالتالي، في الفوز بعقول الطلبة وأفئدتهم.

إنّ معرفته الواضحة وقدراته اللغويّة غير المشكوك فيهما، اللتيْن أظهرهما بالفعل في مراحل تدريسه جميعها، جعلتا من نجاحه أمرًا يبدو طبيعيًّا وسهلًا. فقد وُفّق في جعل العديد من

المصطلحات العاميّة المعقّدة والغريبة، إلى حدّ ما، مُغريةً للعديد من الدّارسين (...) وبإمكان المرْءِ أن يتخيّل، بيُسرٍ، مقدارَ الانجذاب الذي مارسته هذه الدراساتُ على الشباب الذين كانوا يدرسون القانون الفرنسي خاصة.

وبالرغم من أنّ الأستاذ هوداس لم يكن أستاذًا في القانون بدرجة أولى، وأنّه قليلًا ما كان ينشغل بهذا الخطاب، فلم يتناول تفاصيله المثيرة الجدل، إلاّ أنّه كان يسعى إلى شرح ميزاته وضروريات تحليله وفهمه وتأويله.

وإذا كان السّيد هوداس مُتمّكنًا، بشكلٍ بيّنٍ، من أصول اللغة العربية وقواعدها، فذلك يعود إلى حقيقة أنّه كان يعرف العربَ جيدًا، وخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون في شمال إفريقيا. لقد كان كلُّ درسٍ من دروسه شيّقًا ومليئًا بمعرفةٍ كبيرة تراكمت عنده من خلال تجربته الطويلة في التدريس، وإلى ذلك، فإنّ تحدّثه باستمرار عن الوقائع التي شهادها وعاينها بنفسه منحهُ مصداقيّةً وسلطةً وطاقةً إقناعية إضافية على جمهوره المستمع. لقد كان يتحدّث بكلّ عفويّة وببساطة ووضوح، كخير مثالٍ للأستاذ العالم، والذي لا ينطق إلاّ باللاّزم، وليس المهمُّ أن نقول الشيء الكثير، بل المهمّ أن نقول هذا الشيء بوضوح وبهدوء تامٍ. وستظلّ تشهدُ تلك القاعة الصغيرة، التي كان يُقدّم فيها أغلبَ دروسه، كيف كانت عيناهُ الرقيقتان تختبآن وراء النظّارة، كما ستظلّ شاهدةً على

ابتسامته الدائمة، ولحيته الرّمادية، وكلامه الفصيح الواضح، فهي، كلّها، أشياء كنّا نلحظها، تُضيء جميع زوايا الموضوع الذي يُدرّسه.

لطالما كان هوداس شيخًا جزائريًّا بالأساس، فقد ظلّ مُرتبطًا ارتباطًا عميقًا بهذا البلد الذي عاش فيه لفترة جدّ طويلة. لقد عرفه جيدًا، لاسيما في الفترة التي مكث فيها مع عائلته هناك. وعندما أنشأ السّيد كامبون، المُكلّف العام، مكتب المفتّش العام للمدارس، تولّى هوداس بنفسه رئاسة هذا المنصب بشغفٍ خاصٍّ. وإلى ذلك، فإنّ السلطات، في مختلف مستعمرات شمال إفريقيا، كثيرًا ما كانت تطلب منه المساعدة على القيام بعملٍ ما، فلا تجده إلاّ مستعدّا دائمًا لتلبيه هذا الطلب؛ سواء أكان مجرّد رأيٍ حول أمرٍ ما، أو مهمّةً علميّةً يجب تنفيذها، أو إصدار خطابٍ مخصوصٍ، أو حتى نشر ورقةٍ علميّةٍ باللّسان العربي. إنّ قلمَهُ الذكي وخطَّه الأنيق والواضح باللغة العربية، كما هو الحال مع اللغة الفرنسية بطبيعة الحال، لم يكن يتردّد في التعامل مع أثقل المهامّ الموجّهة إليه (...) لكنّ المرض وضعه في اختبارٍ صعبٍ، بالرغم من أنّه كان يُراقب صحّته باستمرار، ويواجه هذا المرضَ بشجاعة هادئة. ولقد استمرّ، على الرغم من مرضه هذا، في عمله الذي جعله، منذ زمن طويل، يتبوّأ منزلةً مهمّةً في طليعة المستشرقين الفرنسيّين. ووحده الموتُ، هذا الذي ضرب

مدرسة العلوم السياسية في مقتلٍ، الذي منعه من المواصلة في ممارسة هذا العمل. فخلال عشرين سنة من التدريس، قام السيد هوداس- هذا الشخص المتواضع والمستقيم بشهادة زملائه الأصدقاء، الذين كانوا جميعهم يقدّرون قيمته، ويأسفون بشدّة لموته- بتأطير العديد من الطلاّب، الذين سيحافظون، دون شك، على دروسه في ذاكرتهم، وسيكونون، دائمًا، ممتنّين له ولدروسه التي قدَّمها لهم وللمصادر القيّمة التي أطلعهم عليها.

4- خطابُ وداعٍ أخيرٍ:

وهو الخطاب الذي ألقاه سكرتير مجلة **"النشرة الأثرية للجنة الأعمال التاريخية والعلمية"**[1]، السيّد ر.كاقنا (R.Cagna)، ردًّا على رسالة السيد أدريان جاك (Adrien Jacques) - زوج لويز فلانتين ابنة الشيخ هوداس[2]- التي بعث بها إلى اللجنة العلميّة

---

(1) Bulletin archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques. Imprimerie nationale. Paris. 1916.
وهي مجلّة تمّ إصدارها بفرنسا في القرن التاسع عشر، وتسعى إلى نشر أهمّ نتائج البحوث الأثرية والتاريخية والفنية، كما تهتمّ بكلّ ما له علاقة بالتاريخ القديم وفترات العصور الوسطى، عصر النهضة والأزمنة الحديثة.

(2) تزوّجت لويز من صديقها ذي الأصول الألمانية "أدريان جاك"، وعاشا معًا في مدينة بروكسال، هناك حيث تحصّل جاك على وظيفة مهمّة في إحدى الشركات الحكومية. ينظر تفصيل ذلك في: =

لهذه المجلة التي كان هوداس عضوًا فيها. وقد قُرئت هذه الرسالة القصيرة ضمن أحد الاجتماعات الدورية لأعضاء اللجنة، وكان هذا نصّها[1]:

"سيّدي الرئيس،

"يؤسفني أن أحيطكم علمًا بأنَّ والدَ زوجتي، السيد أوكتاف هوداس، قد تُوفيّ. ونظرًا إلى حساسيّة هذا الموقف، فقد جرت مراسمُ الدفنِ هذا الصباح في جوٍّ تامٍّ من الخصوصيّة. سيّدي الكريم، لقد كان هوداس، حتى لحظاته الأخيرة، مهتمًّا جدًا بأعمالكم كلّها، على الرغم من أنّ حالته الصحيّة الحرجة، التي استمرّت لفترةٍ طويلةٍ، كثيرًا ما كانت تمنعه، حقًّا، من الحضور المتكرّر لجلساتكم.

تقبّلوا، سيدي الكريم، امتناني وتقديري الكبيريْن".

وجاء ردُّ رئيسِ اللّجنةِ العلميّةِ، الذي اعتبرناه رسالةَ تأبينٍ وخطابَ وداعٍ صادقٍ ومُعبّرٍ عن المشاعر والأحاسيس الإنسانيّة النبيلة التي كان يكنّها هذا الرئيس لهوداس، وشهادةً أخرى

Louise Delafosse: Maurice Delafosse. Le Berrichon conquis par L'Afrique. P. 241. =

(1) يُنظر نصّ الرسالتيْن في:

Bulletin archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques. Imprimerie nationale. Paris. 1916. P. CCXXIX-CCXXX

تنضاف إلى الشهادات السّابقة، ومن شأنها أن تمنحنا معلوماتٍ إضافية عن شخص هوداس، كالآتي:

"تُعبّر اللجنةُ العلميّةُ عن عميق حزنها وتعاطفها اللاّمحدود مع عائلة السّيد أوكتاف هوداس. لقد خسرنا، اليوم، زميلًا ممتازًا، هو المفتّش العام للمدارس، والأستاذ في معهد اللغات الشرقية الحديثة، والأستاذ في كليّة العلوم السياسية، الذي كان يُبرهن لنا، باستمرار، عن حماسه وعن شغفه الدّائم بالعلمِ والعملِ.

لقد كان هوداس يقوم بمهنةٍ شاقّةٍ، وساهم، بمهارةٍ فريدةٍ، في تنظيم المدارس المحليّة في الجزائر؛ من خلال تعليمه، وجهوده المتواصلة، ومن خلال أعماله الفكرية العديدة أيضًا. لقد سهّل نشرَ اللغةِ العربيّةِ، وساهم في تعميم المعرفة بها وفي تداولها، الأمر الذي كان ضروريًا للضباط وللإداريّين الفرنسيّين، لاسيما أولئك الذين كانوا مضطرّين إلى التعامل مع السّكان المسلمين والعيش بينهم وفي بيئتهم.

كان السيّد هوداس واحدًا من أولئك الأشخاص اللّطفاء الذين كسبوا الكثير من الاحترام والتقدير. ولا عزاء، اليوم، لتلاميذه ولأصدقائه الكثيرين الذين تركهم ورحلَ. فهل أحتاج إلى أن أذكّركم بالحرص الكبير الذي كان يُبديه في تفسير النقوش والخطوط العربية أو أيضًا بتعليقاته المثيرة للاهتمام الواردة في تقاريره العلميّة؟

من البيّن أنّ جسده كان، في السنوات الأخيرة من عمره، يضعفُ شيئًا فشيئًا. كان ذلك يبدو واضحًا لنا. ولقد كان الألمُ يعتصرنا ونحن نلحظ هذا الأمر دون أن نقدر على تقديم الحلول النّاجعة له. ومع ذلك، فقد كان هوداس شُجاعًا، وتغلّب، تقريبًا حتى أُخريات أيّامه، على معاناته، من أجل أن يكون ههنا معنا وفي وسطنا دائمًا.

إنّنا نشعر، اليوم، بحزنٍ عميقٍ إزاء غياب أحد أبرز المساعدين لنا، الذي كان، بالنسبة إلينا، مهمًّا للغاية، إذ كان بإمكاننا الاعتماد عليه في كلّ وقت.

ستظلّ ذكراك خالدةً دائمًا؛ فالخدماتُ الجليلةُ كلّها التي قدّمتها لنا، والأوقات الشيّقة التي أمضيناها معًا، لن ننساها أبدًا".

5 - تأبين جماعي:

ثمّة شهادة أخرى عن أوداس حقيق بنا أن نذكرها؛ وهي الشهادة التي صدّر بها أعضاءُ هيئة مجلّة الدراسات التاريخية والعلميّة العدد الصّادر سنة 1917[1]. وقد وردت شهادةُ اللجنة، التي اعتبرناها تأبينًا لشخص هوداس، كالآتي:

(1) Annuaires et mémoire, Comité d'études Historiques et Scientifiques de L'Afrique occidentale Francaise, 1917. Imprimerie du Gouvernement générale, 1917. P.P. 24- 25.

"لقد تأثّر الفكر الاستشراقي الفرنسي كثيرا بوفاة السيّد أوكتاف هوداس، الذي غادرنا في 5 ديسمبر من سنة 1916 عن عمر يناهز 76 عامًا، لأنّه فقد أحد أبرز منظّريه وفي الوقت نفسه واحدا من أولئك الذين كانوا يتميّزون بقدرٍ كبيرٍ من التّفاني والرقّي. كان الراحلُ هوداس مُفكّرا لامعًا وإنسانا نزيها ونبيلًا. لقد كان الخالقَ والبادئَ لحركة الاستشراق في غرب إفريقيا السوداء، وسيبقى وحده "السيّد" في هذا المجال، وبلا مُنازع. ولهذا السبب، فإنّ وفاته قد تركت فراغًا كبيرا عند هيئة الدراسات التاريخية والعلميّة لغرب إفريقيا الفرنسية وهو لعمري، فراغٌ لن يُملأ أبدًا. كان هوداس يتمتّع، منذ شبابه، بعقل نشط ومُنفتح على دراسة المناطق الواسعة المفتوحة والمجهولة تمامًا، والتي امتدّت إلى أبعد المناطق التّابعة للجزائر وإلى تمبكتو تلك المدينة السّاحرة التي كانت لا تزال وقتها مكانًا مجهولًا. وكثيرا ما كان يُعرب هو نفسه عن عظيم حسرته لأنّ تدهوّر صحّته حال دون زيارتها مجّددا: لقد كان ندمه هذا ندمًا صادقًا بحقّ، لا سيما في وقت أصبحت فيه هذه المدينة مقصدا للباحثين جميعهم، ومع ذلك فإنّ أيّا ممّن زار تمبكتو بما في ذلك المستكشف بارث نفسه، لم يقدّموا لنا معلوماتٍ شافيةً كافيةً عنها على نحو ما فعل السّيد هوداس. لقد كان يتمتّع بميزةِ إثارةِ البحث عن المخطوطات العربية المتعلّقة بتاريخ السّودان وآدابه. وقام في مرحلة ثانيةٍ،

بترجمة الوثائق التي تمّ إحضارها إليه بطرائق مختلفة. ولقد كانت ترجمته واضحةً ودقيقةً، ومصحوبةً بالعديد من الملاحظات التي ساهمت في مُضاعفة قيمة النصّ المُترجم وزيادة الاهتمام به بلا شكّ.

إنّ أوّلَ كتابٍ قام هوداس بترجمته ثم نشره هو كتاب "تاريخ السّودان" لعبد الرحمان السّعدي. ولا يُمكن لأحدٍ أن يُنكر الخدمة الهائلة التي قدّمها هوداس بفضل إنجازه لهذا العمل. وقد ساعدته على إتمام هذه الترجمة إحاطته الواسعةُ بالتاريخ ليس فقط تاريخ تمبكتو ولكن تاريخ الإمبراطوريات السّودانية القديمة كذلك؛ غانا ومالي بصفةٍ خاصةٍ. بعد ذلك جاء كتابُ تذكرة النسيان في أخبار ملوك السّودان، ثم كتاب "تاريخ الفُتّاش" الكتاب الأكثر شهرةً وإثارةً للاهتمام من بين الكُتب الثلاثة التي قام هوداس بترجمتها.

وممّا لا شكّ فيه أنّ السيّد هوداس لم يكن، على الرغم من تقدّمه في العمر، ينوي التوقّف عند هذا الحدّ. لقد كان بالتأكيد ينوي تقديم مُساهمةٍ غاليةٍ للعِلْم السّوداني، ولا تقدّر بثمنٍ، ولكنّ المرض داهمه فجأةً، وبمجرّد انتهائه من ترجمة المُجلّد الضخم الذي يحمل عنوان "التقاليد الإسلامية" للبخاري. لقد كان مثالًا للعالم الصّادق الخلوق. ولا شكّ في أنّ العديد من المسؤولين في

غرب إفريقيا الفرنسية، خاصّة أولئك الذين تلقّوا تكوينهم العلمي المتين على يد هوداس، سيواصلون السّير في الطريق نفسها التي عبّده لهم معلمّهم الموقّر، كي تكون الفائدة من ورائه حاصلةً ومتسمرّةً، حتى وهو قد غادرنا للأبد".

6 ـ شهاداتٌ أخيرةٌ لا بدّ منها:

أشرنا على مدار الكتاب كلّه إلى نُدرة الدراسات التي تحّدثت عن أوكتاف هوداس، ما من شأنه أن يوضّح لنا بكلّ جلاء المصيرَ الظالمَ الذي لحق بهذا المُستشرق في أغلب الأحيان. وإذا كان لا ينفع في شيء أن نُدين، ههنا فقر المراجع العربية التي وصلتنا عن أوكتاف هوداس، فإنّه قد يبدو من الأسلم والأصحّ أن نعود إلى جملةٍ من تلك الشهادات والاعترافات التي دوّنها بعضُ الكُتّاب الذين بحثوا ضمن فترات زمنية متباينة في تاريخ الاستشراق بالجزائر، فخصّصوا من ثمّة هامشًا للحديث عن هوداس. إنّها شهادات من شأنها حتى وإن تباينت طولًا وقيمةً أو إن كرّرت بعض ما قاله الباحثون الغربيون أحيانًا، أن تحسم أهميّة هذا المُستشرق، وتُقرّبه من أذهان النّاس، وتُوليه المكانة التي هو حقيقٌ بها.

ههنا، إذن، نعود لنختم بأهمّ تلك الآراء العربية القليلة

التي قيلت فيه، لكي يأخذ القارئ فكرةً إضافيّة عن هوداس ويتحسّس مكانته عند الكُتّاب والباحثين العرب. فلْنُشر إذن إلى أهمّ هذه الأعمال، ولْنتحدّث أوّلا عن كتاب **"أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"** للباحث الجزائري **"أبو القاسم سعد الله"**. إنّ المُطلّع على هذا الكتاب القيّم يجد أنّ صاحبه قد خصّص بعض الأسطر للحديث عن هوداس، إذ نجده يقول:

"حلَّ أوكتاف هوداس بالجزائر سنة 1863 عند استلامه كرسي العربية في الكوليج العربي- الفرنسي، وبقي بالجزائر إلى سنة 1884 حيث عمل أيضا أستاذا في ليسيه العاصمة، وتولّى كرسيّ العربية بوهران، وكرسي العربية بمدينة الجزائر، ثم افتتح تعليم العربية في مدرسة الآداب العليا عند إنشائها سنة 1880. نشر هوداس مؤلّفات موجّهة لتلاميذه، وكذلك ترجم تحفة ابن عاصم في الفقه المالكي، وهو العمل الذي شغله قرابة عشر سنوات، كما ترجم أعمالًا تتعلّق بتاريخ المغرب العربي عموما والسودان القديم وبعض صحيح البخاري (...)

ولقد تبيّن من هذا البحث أنّ العلاقة بين الاستعمار والاستشراق في الجزائر كانت وطيدةً وأنّ الحديث في ذلك إنّما هو محض تكرار لا طائلة منه، ولكن هناك نقاط أخرى يُمُكن أن نستخلصها وهي:

1- أنّ عزم الفرنسيّين على البقاء في الجزائر وهجرتهم إليها واستيطانهم لها ترتّب عليه الاهتمام بلغة السكّان فحاولوا تعلّمها ليفهموا أهلها ويسهُل عليهم التعامل معهم قبل أن يتوطّد حكمهم وتنتشر لغتهم وتأثيرهم. وقد أدّى ذلك إلى اهتمامٍ خاصٍّ بدراسة اللّهجات الجزائرية العربية وغير العربية فألّفوا فيها الكُتب المدرسية، ودوّنوا أمثالها وتعابيرها ودرسوا الفروق بينها من منطقة إلى أخرى، وكذلك الفروق بينها وبين اللهجات العربية الأخرى التي امتدّت إليها معرفتهم. ولكن ذلك لم يخل من مغامرة كالقول بأنّ اللهجات العربية في شمال إفريقية ابتعدت أكثر من غيرها عن العربية الأمّ. وقد رأينا كيف أنشأوا عدّة كراسي للعامية في الجزائر ثم أضافوا إليها كرسي العاميّة الجزائريّة في مدرسة اللغات الشرقيّة بباريس وآخر عن البربريّة في نفس المدرسة.

2- أنّ الجزائر أصبحت منطلق نشاط الاستشراق الفرنسي مبكّرا (...) ومن الجزائر انطلقوا أيضا فيما يُسمّى "بالمهمّات العلميّة" إلى كلّ من تونس والمغرب والسينغال وتمبكتو وغدامس، إلخ. فتحدّثوا عن المخطوطات والمكتبات هناك ووصفوها وفهرسوا

بعضها ونقلوا منها ثمّ نشروا من ذلك ما يُفيدهم ويُفيد دولتهم (...)

3- ومع ذلك فإنّ جهود هؤلاء المُستشرقين في دراسة وتعليم اللهجة الجزائرية وفي نشر وتحقيق وترجمة مجموعة من كتب التراث هي جهود جديرة بالتنويه. يُضاف إلى ذلك أنّ عددا من الجزائريين قد تتلمذوا عليهم وأصبح بعضهم في طليعة الباحثين والمؤلّفين في نفس الميدان. ونكتفي هنا بذكر بلقاسم بن سديرة الذي ألّف مجموعة من الكُتب المدرسية التعليميّة منذ أواخر القرن الماضي، ومحمد بن أبي شنب الذي يختلف عن زميله في عنايته بالتراث العربي وتحقيق العديد من المخطوطات"[1].

سوف نختم حديثنا بهذه الإفادة الصادرة عن باحث ثانٍ هو الكاتب الجزائري "مُبارك الجعفري" في كتابه، **"مقالات وأبحاث في تاريخ الجزائر"** عن دار الكتاب العربي بالجزائر، 2018. وهي إفادة مهمّة، رغم أنّها تظلّ جزئيةً وتسير على خُطى الأبحاث السّابقة، ويُمكن أن يُعوّل عليها في هذا السّياق، لأنّها قادرة على

(1) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، يُنظر هامش صفحة 41، ويُنظر خاصّة الصفحات: 42- 43- 44.

تثبيت قيمـــة "هوداس" ومكانته في مجال الاستشراق. يقول الباحث[1]:

"عند الحديث عن المُستشرقين الفرنسيين لا بدّ من الحديث عن الجزائر التي كانت أهمّ ميادين احتكاكهم بالعالم الإسلامي نتيجة لعدّة عوامل لا يتسّع المكان لذكرها، إذا فلا غرابة أنّ كثير [كذا] من هؤلاء المُستشرقين قد مرّوا بها وتركت أثرا بارزا في كتاباتهم وحتى في نهاية حياتهم اليومية، ومن الأمثلة على ذلك لويس ماسينيون وريجي بلاشير وشارل بلاّ وبيرون وأوكتاف هوداس الذي يُعدّ من أبرز المُستشرقين الذين اهتمّوا بمصادر التاريخ الإسلامي لغرب إفريقيا في العصر الحديث حيث قام بنشر وتحقيق وترجمة أربعة من أهمّ المخطوطات في هذا المجال وهي تاريخ السودان لعبد الرحمان السّعدي التمبكتي، وتاريخ الفُتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس لمحمود كعت، وتذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمؤلّف مجهول، ونزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي للمراكشي، على الرغم من كونه ليس سبّاقًا لهذا المجال الذي حظي باهتمام ودراسة الكثير من المستشرقين الذين أخضعوا وقائع التاريخ الإسلامي

(1) مُبارك الجعفري" في كتابه، مقالات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الصفحات، 62، وما بعدها.

ومظاهره الحضارية لُمعالجات أسندت إلى تفاسير كثيرة ومتنوّعة منذ العصر الجاهلي قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلّم وإلى غاية اليوم، كما تمّت ترجمة مُعظم أمّهات كُـتب التاريخ الإسلامي الذي كان من بين المواضع الأكثر عُرضة لهجمات المُستشرقين وكتاباتهم الأكثر تضرّرا لأنّه يمسّ ماضي الحضارة الإسلامية المُشرق(...)

غير أنّ هذا النهج لا ينطبق على كلّ المُستشرقين، وهو ما سنُحاول إبرازه من خلال هذه المُداخلة حول المُستشرق هوداس. وتكمن أهميّة الموضوع من أهميّة ما قام به هوداس وأهميّة المصادر التاريخيّة التي رأت النور على يديْه، والتي لا يُمكن لأيّ باحثٍ في تاريخ إفريقيا القفز عليها[...]

تكمن الملامح الاستشراقية لهوداس ومنهجه فيما يلي:

- تضلّعه في اللغة العربية وعلوم القرآن والحديث ومختلف العلوم الشرقية، وخيرُ دليلٍ على ذلك ترجمته لعدّة سور من القرآن، وترجمته لصحيح البُخاري، إلى جانب ذلك كان له اطّلاع واسع على العاميّة التي يصعب فهمها سواء في منطقة السودان الغربي أو المغرب الأقصى وقد تعامل معها بمرونة وفهمٍ كبير.
- معرفته بالخطّ العربي، وله مؤلّفات في ذلك ممّا سهّل

عليــه قــراءة هاتــه المخطوطات ومن ثمّ تحقيقها وترجمتها.

- معرفته وفهمه الدقيق لتاريخ المنطقة وكلّ ما يتعلّق بها من مُختلف النواحي السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة ومعرفة خصوصيّاتها.
- اطّلاعه ومعرفته بالمخزون التراثي من مخطوطات وآثار لمنطقة السودان الغربي والمغرب العربي بحكم وجوده في الجزائر.
- اعتماده على التحقيق المُباشر دون الدراسة والتحليل فقد جاءت هاته الأعمال خالية من الجانب الدراسي، وهو ما أضفى على عمله جانبا من الموضوعيّة والأمانة، فدراسة المخطوط سلاحٌ ذو حدّين فهي من ناحية تُثمّنه وتُعطيه الإضافات اللاّزمة ومن جهة أخرى قد تُستغلّ من طرف المُحقّق لمآرب أخرى من أجل التغطية على المخطوط أو التقليل منه أو تشويهه.
- كان انتقاؤه لهاته المصادر بداعي أهميّتها وهذا دليل على الروح العلميّة التي كان يتمتّع بها فهي تستحقّ هذا الجهد والمكانة عكس كثير من المُستشرقين الذين راحوا يبحثون عن كلّ ما هو شاذّ وغريب.

- اتّباعه المنهج العلمي الأكاديمي، فلا نستشفّ من خلال عمله آرائه الفكرية والسياسية والمدرسة التي ينتمي إليها.
- الأمانة العلميّة سواء في نشر هاته المصادر أو في ترجمتها أو تحقيقها، فقد جاءت من دون تغيير أو إضافات وهو ما يُفسّر قلّة استخدامه للهامش، ولم تزد هوامشه عن السطر في أغلب الأحيان وكانت الهوامش في أغلب الأحيان تُشير إلى الفروق بين النسخ أو تصحيح بعض العبارات وشرحها مع طبعها ونشرها طباعة مقبولةً، فمثلا كتاب "نزهة الهادي" لا زالت طبعة 1888م متداولةً إلى اليوم.
- تأثّره بالمدرسة الشرقية والثقافة العربية الإسلامية وهناك الكثير من الإشارات على ذلك فعندما يكتب مثلا "باريس" يكتب بجانبها "المحميّة" أو "المحروسة" تقليدا لما كان في المخطوطات العربية مثل الجزائر "المحروسة".

الخاتمــة

صحيحٌ أنّ أوكتاف هوداس كان فرنسيًّا في البدْءِ وفي المنتهى، لكنّ أصوله الغربيّة لم تكن لتمنعه من التعبير عن إعجابه بالثقافة العربية، وبما أنتجته من مصادر لازالت، وإلى اليوم، تُثيرُ أغلبَ الدّارسين، لاسيما أولئك المستشرقين منهم، المولَعينَ بتتبّع العلوم العربية والدراسات التاريخية والإسلامية بهدف اكتشافها وتعقّب فوائدها والتنقيب عن مواطن طرافتها. وفي هذا السياق تندرج محاولات أوكتاف هوداس في التأليف والترجمة والتحقيق.

ولقد ثبت لنا، بعد معاينة بعض أعمال هوداس التي أُتيح لنا الاطّلاع عليها في هذا البحث، أنّ اهتمام هذا المستشرق بالفكر العربي، دراسةً وتدريسًا، لم يكن بغاية تعقّب الثغرات التي تُتيح للمُـتعقّب الطعنَ في هذه الدراسات العربية الإسلامية والشكّ فيها، كما سعى إلى ذلك العديد من المستشرقين، ليس ههنا مجال الحديث عنهم، من حيث دوافعهم وأهدافهم ورسائلهم، فقد أُشبعت هذه القضايا بحثًا، إنّما كان هدفًا علميًّا نزيهًا، يسعى من خلاله إلى الاستفادة من هذه المعارف والدراسات والمخطوطات العربية النادرة والتعاطف معها، وحفظها وفهرستها، وإنصافها

قدر الإمكان، وذلك بعد أن خمل الاهتمامُ بها ردحًا من الزمن، فنتج عن ذلك أنْ تَرَكَ لنا هذا المستشرقُ، بعد أن امتدّ به العمرُ حتى شارف العقد السّابع من حياته، تِركةً علميّةً مهمّةً وتقول الكثيرَ، هي نتيجة لدراساتٍ علميّةٍ غزيرةٍ ومتأنيّةٍ ورصيدًا فكرّيًا مُعتبرًا، سهّل على الباحثين إعادة استكشاف هذه الآثار الأدبية النادرة، والمواصلة في صيْدِ فوائدها.

ثبت بيبليوغرافي مختصر لأهمّ أعمال أوكتاف هوداس، وللمواقع الشبكيّة التي تخصّه أو تتعلّق به

- **أهمّ مُؤلّفاته:**

- Essai sur l'écriture maghrébine. Nouveaux Mélanges orientaux. Congrès de Vienne. Septembre, 1886.
- Ethnographie de l'Algérie. Libraires de la Société d'ethnographie. Paris. 1886.
- L'Alchimie Arabe, comprenant une introduction historique et les traités de Cratès, d'el-Habib, d'Ostanès et de Djâber. Tirés des manuscrits de Paris et de Leyde. Imprimerie Nationale. Paris.
- La Guerre Saint Islamique, in, Revue des Sciences Politiques. Publiée avec la collaboration des professeurs et des anciens élèves de l'école libre des sciences politiques, Librairie Félix Algan, Paris, Tome XXXIII.- II. Avril, 1915.
- L'islamisme. Dujarric et Gie Editeur. Paris. 1904.
- Mission scientifique en Tunisie. (En collaboration avec René Basset). Imprimerie de l'association ouvrière P. Fontana & Cie. 1884.
- Précis de Grammaire Arabe. Librairie Africaine et Coloniale. Paris. 1897.
- Syllabaire de la langue Arabe. Maisonneuve et CH. Leclerc éditeurs. Paris. 1889.

- **أهمّ الأعمال التي قام بترجمتها:**

- Tarikh Es- Soudan: Abderrahman Ben Abdallah Ben ‘Imran Ben ‘Amir Es - Sa‘di. Texte Arabe édité et traduit par: O. Houdas avec la collaboration de Edem. Benoist. Librairie d’Amérique et d’orient. Paris. 1964.
- Tedzkiret En-nisianān Fi Akhbār Moulouk Es-Soudān. Traduction Française. Texte Arabe Edite par: O. Houdas، avec la collaboration de Edem Benoist. Librairie d’Amérique et d’orient. Paris.1966
- Les traditions islamiques, El-Bokhâri, Tomes), traduites de l’arabe avec notes et index en collaboration avec W.Marçais, Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1984.
- Mahmoud Kâti Ben El- Hâdj El– Motaouakk El Kâti et l’un de ses petits – fils: Tarikh El - Fettach" ou Chronique du chercheur. Traduction Française par : O. Houdas et M. Delafosse. Paris.1913.
- Mohammed Esseghir Ben EL Hadj Ben Abdallah Eloufrâni. Nuzhat al- hâdi. Histoire de la Dynastie saadienne au Maroc (1511- 1670). Traduction Française par: O.Houdas. Paris Ernest Leroux. Editeur. 1889.

- **مؤلّفات عنه:**

- Caudel Maurice. Octave Houdas. Revue des sciences politiques. Publiée avec la collaboration des professeures et des anciens élèves de l'école libre des sciences politiques. Trente-deuxième Année 1917. XXXVII-Janvier A Juin 1917.

المصادرُ والمراجعُ العربيّة

- **المؤلّفاتُ:**

- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج،4، دار الغرب الإسلامي، ط،1، بيروت، 1996.
- أحمد العلاونة: معجم مترجم لأشهر الرجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (3ج)، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، 2002.
- جميلة إمحمد التكيتك: مملكة سِنغَاي الإسلاميّة في عهد الأسْكِيَا محمد الكبير، 1493-1528، ط، 1، منشورات مركز جهاد الليبيّين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية، رقم، 26، 1998.
- الحسيني عبد المجيد هاشم، الإمام البُخاري محدّثا وفقيهًا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د، ت.
- حماه الله ولد السالم (تحقيق): القاضي محمود كعت، تاريخ الفُتّاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، تحقيق، ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط،1، 2012.

- الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السّلام وأخبار محدّثيها وذكر قُطانها العلماء من غير أهلها وواردها، حقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه، بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط،1، 2001.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط، 6، 1983.
- عبد اللطيف الشادلي (تحقيق): محمد الصغير الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة الصباح الجديدة بالدار البيضاء، 1998.
- مبارك جعفري: مقالات وأبحاث في تاريخ الجزائر، دار الكتاب العربي، ط،1، الجزائر، 2018.
- يوسف إلياس سركيس: معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، ج 2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

- **المقالات:**

عبدالسلام أنويكة: حول تاريخ السودان الغربي للمؤرّخ السعدي، علامات منهجيّة وتقاطعات، دوريّة كان التاريخيّة، مؤسسة كان للدراسات والنشر، س،11، ع، 39، القاهرة، مارس، 2018.

المصادرُ والمراجعُ الأجنبيّة

- **المؤلّفات:**

- Jaques Hureiki: Essai sur Les origines des Touaregs. Préface d'André Bourgeot. Edition Karthala. Paris. 2003.
- Louise Delafosse: Maurice Delafosse، le Berrichon conquis par l'Afrique. Préface du président F. Houphouet –Boigny. Postface du Président L.S.Senghor. Société Française d'histoire d'outre - mer. Paris. 1976.
- Michek Izard: Mogoo, L'Emergence d'un espace étatique ouest- africain au XVI^{e} siècle. Etude d'anthropologie historique. Edition Karthala. Paris. 2003
- Shaykh Muusa Kamara: Florilège Au Jardin de l'histoire des Noirs. CNRS Editions. Paris.1998.

- **المقالات:**

- Clark Malcolm, L'islam pour les Nuls, Traduction, Maylis Gillier, Traduction, Malek Chebel, Edition First, Paris, 2008.
- Anna Pondopoulo: Les dialectes soudanais à l'école des langues orientales au tournant des XIX^{e} et XX^{e} siècles: Les homes, les politiques, les choix. In: Islam et Société en Afrique Subsaharienne à L'épreuve de

l'histoire. Sous la direction de Odile Goerg et Anna Pondoupoulo. Edition Karthala. Paris. 2012.

- CH. Monteil: Notes sur le Tarikh es-Soudan. Bulletin de L'institut Français d'Afrique noire. Série B, Sciences Humaines. T: XXVII. N 1-2. Janvier– Avril 1965.
- Djamil Aïssani et Djamel- Eddine Mechehed: La Khizana de Cheik Lmuhub. Reconstitution d'une Bibliographie de Manuscrits du XIX^{e} Siècle. In: Les Manuscrits Berbères au Maghreb et dans les collections européennes. Acte des journées d'étude d'Aix- en- Provence 9 et 10 décembre 2002. Atelier Per rousseaux. 2007.
- Henri Labouret: Maurice Delafosse: A Personal Appreciation», Africa In: Journal of the International African Institute.Vol.1, n°1, janvier 1928.
- Louise Delafosse: Témoignage. Comment prit Fin la carrière coloniale de Maurice Delafosse. In: Revue Française D'histoire D'autre–Mer. Tome. LX. Premier trimestre 1974. N 22.
- Vincent Monteil:Charles Monteil (1871-1949). In: Hommes et Destins. Publications de l'Académie des sciences d'outre - Mer. Travaux et Mémoires. Paris. 1984.

- **مواقع الكترونية:**

https://gw.geneanet.org/lepope?lang=fr&n=houdas&oc=0&p=octave+victor.

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%8A%D9%83.

أوكتاف فيكتور هوداس (1840 - 1916)
OCTAVE VICTOR HOUDAS

عاش المستشرق الفرنسي أوكتاف فيكتور هوداس ومات ولم يترك ولدًا يرثه، لكنّه ترك، في المقابل وبعد أن امتدّ به العمرُ حتى شارف العقدَ السّابع من حياته، أعمالاً جليلةً تتحدّث عنه، وتُشيد بإنجازاته وبأفكاره المتأنيّة إزاء الثقافة العربية الإسلامية. نثر أفكاره في سطورِ كُتبِه المتنوّعة من التأليف في مجالات عديدةٍ إلى الترجمة والتحقيق في الكثير من الدراسات والمخطوطات العربية الإسلامية القديمة، من أجل الإفادة ممّا صحّ منها والإسهام في إنصافها قدر الإمكان. وهي أعمالٌ فتحت، ولازالت، للباحثين مجالاً واسعًا لإعادة الاتّصال بتراثهم وماضيهم الفكري، والنهل من معينه، واقتناص العِبر منه، باعتبار ذلك مقدّمة ضرورية للرقّي به أوّلا وبذواتهم في المحلّ الثاني. من أشهر كتبه:

Précis de Grammaire Arabe، (قواعد اللغة العربية الواضحة). 1897؛ Ethnographie de l'Algérie ، (إثنوغرفيا الجزائر) 1886؛ L'islamisme (الإسلام) 1904؛ Mission scientifique en Tunisie،(مهمّة علميّة في تونس) 1884.

عبد الستار الجامعي

باحث تونسي متخصّص في تحليل الخطاب، متحصّل على شهادة الدكتوراه في اللغة والآداب والحضارة العربية من جامعة تونس بملاحظة مشرّف جدّا، وهو الآن بصدد إنجاز أطروحة دكتوراه ثانية في الاختصاص نفسه بجامعة السوربون باريس الرابعة. صدرت له دراسات نقدية عديدة من بينها كتاب: النصّ القصصي والقراءة، وكتاب تحليل الخطاب الأدبي: فصول في النظرية والتطبيق، وكتاب: الخطاب الأدبي والمتلقّي (بالاشتراك). كما قام بالتنسيق لبعض الكتب الجماعية أهمّها كتاب: اللّسانياتُ ومناهج النقد الأدبي، بالإضافة إلى العديد من المقالات المنشورة في مجلات علميّة محكّمة.

ISBN 978-9920-627-15-3

الدار البيضاء/بيروت
+212522810406 / بيروت:+9611747422
markazkitab@gmail.com

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع